Egyptian Women and The Production of Feminist Knowledge: Bahithat Al-Badiya as A Model

Hend Moustafa Ali

Arab Women Organization, Egypt

DOI: 10.21608/IJCWS.2022.239118

Abstract

Despite her short life, Malak Hifni Nasif, known as Bahithat al-Badiya, was a prominent Egyptian reformist, as well as a feminist figure who had a significant contribution in Modern Egyptian thought. Starting with the concept of (feminist epistemology), this paper sheds light on the discourse that Bahithat al-Badiya had presented; its forms, main issues and thoughts. The paper argues that the contribution of Bahithat al-Badiya represents a distinguished version of (feminist epistemology) that was characterized mainly by its engaging in reform process on the ground, away from prejudices and ideological arguments, and by its flexible and realistic theme that met the actual needs of a society in transition.

Keywords: Malak Hifni Nasif, Bahithat al-Badiya, feminist epistemology

المرأة المصرية وإنتاج المعرفة النسوية : باحثة البادية نموذجًا

د.هند مصطفى علي
باحثة متخصصة في دراسات المرأة
مسؤولة الدراسات والنشر والإعلام بمنظمة المرأة العربية، مصر

المستخلص:

تقوم هذه الورقة بإلقاء الضوء على نموذج السيدة ملك حفني ناصف (باحثة البادية) كرمز اصلاحي مصري وكذات منتجة لمعرفة نسوية متميزة.
وقد توقفت الورقة عند مفهوم (المعرفة النسوية) ثم تم الانتقال لنموذج باحثة البادية، من حيث بيان موقعها في السياق التاريخي/الاجتماعي الذي برزت فيه، وتم رصد الخطاب الذي قدمته مع بيان أشكال هذا الخطاب الذي تنوع بين خطاب كتابي، ومنطوق، وحركي، وتم بيان قضايا الاهتمام والمقولات الرئيسية التي طرحها الخطاب وصولا لوصف منهج الإصلاح لدى باحثة البادية.
وقد كشفت الورقة أن باحثة البادية لم تكن فحسب سيدة أدت دورًا في التاريخ الاجتماعي والثقافي المصري ، إنما كانت ، ورغم عمرها القصير، رمزًا امتلك ما قد نسميه "سلطة معرفية" حرّكت الفكر وقدمت القدوة في مرحلة مهمة من تحولات الوعي والفكر في التاريخ المصري الحديث. وأنها قدمت نموذجا متميزا من (المعرفة النسوية) له خصائص محددة يمكن الادعاء أنها ظلت تميز الحركة (النسوية المصرية) في مراحل تاريخية تالية.

الكلمات الدالة :ملك حفني ناصف، باحثة البادية، المعرفة النسوية، النسوية، النسوية المصرية

المقدمة

لم تكن ملك حفني ناصف (باحثة البادية) (١٨٨٦-١٩١٨) سيدة أدت دورًا في التاريخ الاجتماعي والثقافي المصري فحسب ، إنما كانت ، ورغم عمرها القصير، رمزًا امتلك ما قد نسميه "سلطة معرفية" حرّكت الفكر وقدمت القدوة في مرحلة مهمة من تحولات الوعي والفكر في التاريخ المصري الحديث.

مقدمة :

منذ تبلور التيار النسوي في الأكاديميا الغربية منذ مطلع السبعينيات، دأبت الاتجاهات النسوية في فلسفة العلم على إعادة النظر في الابستمولوجيا السائدة، موضحة أنه تم تجاهل السياق الاجتماعي والسياسي والتكوين الأخلاقي والقيمي في عمية إنتاج المعرفة العلمية، وأن هناك بصفة خاصة تصورات ومفاهيم وممارسات معرفية سادت تاريخ العلم عملت على استبعاد النساء من البحث وحرمانهن من السلطة المعرفية. في هذا الإطار انشغلت الباحثات النسويات في الحقول العلمية المختلفة بالكشف عن

كيف كانت المرأة مبدعًا ومنتجًا للمعرفة من ناحية، وانشغلن كذلك بصياغة نظريات مؤسسة على التجربة/الخبرة النسوية في الحياة من ناحية أخرى.

وقد اهتم البحث النسوي بإعادة قراءة الإنتاج الفكري والحركي للنساء عبر التاريخ. ضمن هذا الاهتمام، انشغلت دوائر أكاديمية نسوية بإعادة قراءة وتقديم الخطاب النسوي لرائدات النهضة النسائية العربية خلال الفترة الممتدة من تسعينيات القرن التاسع عشر، وما قبلها بقليل، وحتى مطلع العقد السادس من القرن العشرين، تحديدا إبان قيام الثورات التي أفرزت نظمًا حديثة للحكم بدأت تتبنى قضية المرأة على أجندتها وفي سياساتها الحكومية، بشكل تراجعت معه الحركة النسوية المستقلة التي أينعت خلال الفترة المذكورة.

وقد ركز شطر مهم من هذا الاهتمام البازغ [١] على دراسة كتابات النساء عن أنفسهن، ورصد مساهمة النساء في "تشكيل الخطابات الجديدة حول النساء..بوصفهن مجموعة متباينة من الأفراد فكرن في، ودافعن عن واستطعن أن يغيرن من حيوات النساء في سياقات استعمارية وشبه استعمارية أو قومية" [٢].

في هذا الإطار، تقوم هذه الورقة بإلقاء الضوء على نموذج السيدة ملك حفني ناصف (باحثة البادية) كرمز اصلاحي مصري وكذات منتجة لمعرفة نسوية متميزة.

أولا : المعرفة النسوية :

الابستمولوجيا أو نظرية المعرفة Epistemology مصطلح حديث نسبيا يؤرخ لظهوره بمنتصف القرن التاسع عشر، ويستخدم لوصف فرع من فروع الفلسفة معني بطبيعة ونطاق المعرفة والصلة بينها وبين الحقائق الموجودة من حولها ومدى ارتباطها بمفاهيم مثل: الحقيقة والاعتقاد والتَّبرير. ورغم جدة المصطلح نسبيا إلا مناط اهتمامه قديم، واختلفت مقارباته بين المفكرين والفلاسفة عبر التاريخ، فكانت نظرية المعرفة عند أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق.م) هي شرح معنى أن نفهم، وكيف أن المعرفة مفيدة مقارنة بالرأي والاعتقاد، فيما انشغل جون لوك(1632-1704) بمحاولة فهم "عملية الفهم" الإنساني في ذاتها، في حين حاول كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤) بيان الشروط التي تجعل الفهم/المعرفة الإنسانية ممكنة، أما برتراند راسل (1872-1970) فقد كانت نظرية المعرفة لديه هي محاولة لفهم كيف يمكن تبرير العلم الحديث من خلال الاحتكام للتجربة الحسية.[٣]

عند فلاسفة أحدث عهدا كان مناط نظرية المعرفة هو تقصي مدى تقيُّد اليقين (حول أمر ما)، بشكل رشيد، بالأدلة والبراهين. أما نظرية المعرفة النسوية فيمكن القول إنها محاولة لفهم كيف تؤثر المصالح على الأدلة/البراهين، وكيف تؤثر على القيود العقلانية بشكل عام.

---

[١] يمكن هنا رصد بعض الكتابات المهمة مثل:

-Leila Ahmed, *Women and Gender in Islam* (New Haven: Yale University Press,1992); Margot Badran, Feminists, *Islam, and Nation: Gender and Making of Modern Egypt* (Princeton: Princeton University Press,1995); Beth Baron, *The Women's Awakening in Egypt* (New Haven: Yale University Press,1994); Parvin Paidar, *Women and the Political Process in the Twentieth-Century Iran* (Cambridge University Press,1995).

[2] Leila Abou-Lughod (ed.), *Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East* (Cairo: AUC press,1998)

[3] Stanford Encyclopedia of Philosophy. https://plato.stanford.edu/entries/epistemology/

(النسوية) Feminism في هذا السياق تشير بشكل محدد إلى التيار البحثي الذي تبلور داخل الأكاديميا الغربية منذ نهاية الستينيات وبداية السبعينيات[٤] ويؤرخ لتأسيسه في الأكاديميا بظهور دوريات علمية مثل FEMINIS STUDIES وSIGNS.[٥]

والحقيقة أنه رغم ارتباط كلمة (نسوي) بالطروحات الفكرية الفردية الرائدة التي قدمتها أقلام نسائية خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، مثل كتابات ماري ولستونكرافت وسيمون دي بوفوار وبيتي فريدان وأخريات، وارتباطها كذلك بحركة نسائية يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر بالمثل، فإن المصطلح يشير بشكل دقيق إلى التيار العلمي (البحثي) الذي بدأ يؤسس لنفسه ويتوسع بقوة بدءا من مطلع السبعينيات. لكن هذا التيار البحثي نفسه، وفي إطار عملية التأسيس لذاته، دأب على القيام بمراجعات تاريخية واجتماعية ، لتقصي الخطابات النسائية وتقصي واكتشاف الاسهام والابداع النسوي عبر التاريخ وفي سائر الحقول العلمية التي انتمت اليها النسويات.

وغني عن الذكر أن الإشارة إلى مصطلح (النسوية) في هذا السياق بصيغة المفرد، لا تصادر على واقع التنوع الكبير للتيارات التي نطلق عليها "نسوية" . فحقيقة الأمر يشكل الفكر النسوي سديمًا من الأفكار والتيارات والرؤى، تتعدد على محاور تصنيف كثيرة، فعلى محور الأيديولوجيات؛ هناك نسوية ليبرالية واشتراكية وماركسية وراديكالية وبيئية ..الخ ، وهناك تصنيف عبر الزمن يصنف النسوية إلى مراحل أو موجات أولى وثانية وثالثة، وهناك من يميز نقلة معرفية يدعوها ما بعد النسوية، أو من يصنف حسب الأنساق المعرفية فيميز التيارات التي تكتب في نطاق الحداثة عن التيارات التي تكتب انطلاقا من ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية، ناهيك عن التصنيف حسب توجهات جهوية أو خبراتية أو هوية ما كأن نقول النسوية ما بعد الكولونيالية أو النسوية الأفريقية أو النسوية السوداء. ناهيك عن التنوع من داخل الحقول العلمية المختلفة كحقل التاريخ أو القانون أو علم الاجتماع أو السياسة أو الفلسفة..الخ[٦]

وقد انطلق الجهد البحثي النسوي في مجال فلسفة العلم من جهود فلاسفة معاصرين أمثال : توماس كون (١٩٢٢-١٩٩٢) وبول فيبر آبند (١٩٢٤-١٩٩٤) ونورود راسل هانسون (١٩٢٤-١٩٦٧)

نبذوا نظرية المعرفة الوضعية التجريبية القائلة بأن المعرفة الحقيقية هي فقط المستمدة من التجربة الحسية، وأكدوا أن القيم والاهتمامات الثقافية والاجتماعية تؤثر في عملية المعرفة؛ أي أن هناك ارتباط بين المعرفة العلمية والمحيط الثقافي والاجتماعي الذي تنشأ فيه، وكشفوا ، من ثمّ ، تهافت النظرة الوضعية التي ترى أن التصورات العلمية والمفاهيم المعرفية تنفصل عن تاريخ صانعيها ومجتمعاتهم، وأن العلم ينفصل عن كل عملية اجتماعية بدعوى أنه موضوعي.[٧]

---

[٤] كان أول مقرر معتمد لدراسات المرأة قد تأسس في الولايات المتحدة في عام ١٩٦٩ في جامعة كورنيل.

[5] Margaret L. Andersen, "Thinking About Women: A Quarter Century's View", Gender And Society, Vol.19 , No.4 (Aug.,2005)

[٦] هند مصطفى علي، "نحو صياغة خطاب نسوي بديل : قراءة نقدية" في كتاب: النسوية والمنظور الإسلامي: آفاق جديدة للمعرفة والإصلاح، د.أميمة أبو بكر (محرر)، (القاهرة: مؤسسة المرأة والذاكرة بالتعاون مع المعهد الدانماركي المصري للحوار والمركز الدانماركي للمعلومات عن النوع والمساواة والقضايا العرقية، ٢٠١٣).

[٧] خالد قطب، "الاتجاه النسوي في فلسفة العلم"، مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة، مجلد ٦١، عدد٤، أكتوبر ٢٠٠١) .

أوضحت الفلسفة النسوية أن هناك تصورات ومفاهيم وممارسات معرفية سادت تاريخ العلم، من بينها العقلانية والموضوعية، عملت على استبعاد النساء من المعرفة السائدة، ومن الأنساق العلمية القائمة وتم إسكات خبرتها ومعرفتها.

وأن نظرية المعرفة السائدة أنتجت نظريات عن النساء تظهرهن كأنهن أقل شأنا ، وأنها كذلك أدت إلى إنتاج معرفة لا تفيد الأشخاص في مواقع التبعية، وأنها تعزز الهيراركية المتعلقة بالنوع الاجتماعي والتسلسلات الهرمية الاجتماعية الأخرى وأنها أيضًا أدت إلى إنتاج نظريات للظواهر الاجتماعية تجعل أنشطة النساء واهتماماتهن، أو علاقات القوة بين الجنسين، غير مرئية.

في المقابل ركزت الفلاسفة من النسويات على كشف الكيفية التي يؤثر بها الموقع الاجتماعي للباحث على مضمون المعرفة وسبل الوصول اليها. وتتكون المواقع الاجتماعية للأفراد من هوياتهم الاجتماعية (الجنس، والعرق، والتوجه الجنسي، والطائفة ، والطبقة) .

وركزن بالأخص على الطرق التي يؤثر بها (النوع الاجتماعي) على مفهومنا وإدراكنا للمعرفة وللعارفين وممارسات البحث والتبرير، وكيف أسفر قيام الباحثات النسويات في سائر فروع العلم بإدماج منظور النوع الاجتماعي في بحوثهن، عن طرح أسئلة ونظريات ومناهج جديدة. وارتبط هذا بجهود مكثفة لكشف كيف أن المرأة مبدعة ومنتجة للمعرفة، واتجه شطر آخر من الجهود نحو صياغة نظريات مؤسسة على التجربة/الخبرة الانثوية في الحياة.

من الأمثلة التي يمكن أن نسوقها توضيحا لبعض هذه الجهود، الجهود التي بُذلت في نقد مفهوم (الموضوعية) و(التجرد) من منظو نسوي، من خلال بيان الفرق بين نقطة انطلاق المشكلة الأخلاقية عند الرجال وعند النساء. حيث حاج البعض من النسويات أن المشكلة الأخلاقية عند الرجال تبدأ من الحقوق المتنافسة التي يتطلب حلها نمطاً للتفكير رسمياً ومجرداً، في حين تبدأ المشكلة الأخلاقية عند النساء من المسئوليات المتصارعة التي يتطلب حلها نمطاً للتفكير سياقياً وسردياً. وفي حين يرتبط مفهوم الأخلاق (العدالة) بمسائل الحقوق والقواعد، فإن المفهوم النسائي للأخلاق يرتبط بالمسئولية والعلاقات، ومن ثم تمتلك النساء نسقاً أخلاقيا يضرب بجذوره في الإحساس بالحياة اليومية وشبكة العلاقات الإنسانية، أي إنه علائقي وسياقي (يرتبط بالعلاقات والسياق) ويختلف عن النسق التجريدي abstract لأخلاقيات الرجال.[٨]

ومن داخل حقل العلوم السياسية، نستطيع أن نلمس أثر هذا الطرح. إذ أصبحت المقابلة بين "السياقية والعلائقية والتجسيد" في مقابل "التجريد" محل اهتمام كبير للبحوث السياسية التي شرعت في نقد النماذج "المجردة" في العلوم السياسية. مثل الدولة القومية ككيان "مجرد" أدى التركيز عليه، بهذه الصفة، إلى إهمال الحقائق المادية للحياة البشرية التي يولد فيها أطفال ويموت ناس. وبالمثل، واجه مفهوم القوة التقليدي، الذي يعتبر القوة مطلقة ومجردة، انتقادات عدة بيَّنت الطبيعة العلائقية للمفهوم وتداخلاته مع سائر البنى الاجتماعية وتأثيراته على حياة المرأة بكافة تفصيلاتها.

ولم يكن هذا فحسب هو التجل الوحيد للمعرفة النسوية في البحث النسوي السياسي، بل يمكن تلمُّس ذلك في ظهور مفاهيم وموضوعات بحثية جديدة فمثلا اهتم البحث النسوي بتقصي أنماط من الحضور السياسي للنساء في المجتمع لم يلتفت اليها في السابق، فتم مثلا إعادة النظر في الخبرة التاريخية للنساء ونشاطهن، سواء أدوارهن المنزلية أو ما اعتُبر أنه عمل خيري أو خدمات، من من منطلق تعريف جديد للسياسي

[8] Carol Gilligan, In a Difference Voice: Psychological Theory and Women's Development (Cambridge: Harvard University Press, 1982)

يتضمن "محاولات النساء للفوز بالسيطرة على حياتهن وأن يمارسن تأثيراً على المجتمع الذي يعشن فيه"، وباتت دراسة أنشطة النساء في المشاركة في الجمعيات التطوعية والنقابات والانخراط في حملات من أجل الخدمات الصحية أو تحسين التعليم لأطفالهن، تدرس كأنشطة سياسية انطلاقاً من النظر إليها كحالات توضح "تحدي النساء لسلطة الدولة وأصحاب المصالح". وباتت صور التمييز أو القهر الذي تتعرض له النساء، سواء في إطار العائلة أو في الأطر الاجتماعية الأوسع، وكذا وسائلها للمقاومة، قضايا سياسية، باعتبارها محصلة لعلاقات قوة تشترك فيها أطراف مختلفة منها الثقافة وبنية العلاقات الاجتماعية والدولة القومية.

وكما تمت الإشارة سابقا، فقد اهتم البحث النسوي بإعادة قراءة حضور النساء وإنتاجهن الفكري والحركي عبر التاريخ. وانشغلت دوائر أكاديمية نسوية بإعادة قراءة وتقديم الخطاب النسوي لرائدات النهضة النسائية العربية.

وتقوم الورقة التي بين أيدينا بممارسة نسوية تتمثل في رصد لون من المعرفة النسوية غيّبه البحث وفق تحيزات معينة.

تركز هذه الورقة على نموذج السيدة ملك حفني ناصف (باحثة البادية) (١٨٨٦-١٩١٨) كرمز اصلاحي مصري وكذات منتجة لمعرفة نسوية متميزة.

ثانيا - ملك حفني ناصف: الرمز والقدوة:

منذ سني عمرها المبكرة دأبت **ملك** على اختراق الحياة العامة من خلال أشعارها ثم كتاباتها التي كانت تنشر في الصحف، لاسيما مع بروز اسمها باعتبارها أول من نال دبلوما من مدارس الحكومة المصرية.

وفي إطار عملها كمدرسة في مدرسة السنية استطاعت **ملك** –كمَثَل في ذاتها- أن تجتذب إلى المدرسة كثيرًا من الفتيات اللاتي بدأ أهلهن ينشدن تكرار نموذج **ملك** في بناتهن. واجتذاب الفتيات إلى المدرسة الحكومية أمر كان يُنظر إليه نظرة إكبار من قبل المعاصرين **لملك**، ليس فقط لأن البديل هو إبقاء الفتيات في المنازل، بل لأن البديل الآخر كان إرسالهن إلى المدارس الأجنبية، وهذه حسبما يروي مجد الدين شقيق **ملك** "لا تلقن التلميذات شيئًا من لغة البلاد أو تاريخها أو دينها فينشأن نشأة أجنبية بحتة".

والطريف أن **ملك** بشخصيتها العطوفة التي ميزتها كأم ومعلمة بين أخواتها وبين تلميذاتها كانت تكتسب يومًا بعد يوم مزيدًا من الحب والثقة، حتى أن ارتباط بعض التلميذات بالمدرسة كان كأنه ارتباط بها نفسها، للدرجة التي دفعت بعضًا من الطالبات بلغ عددهن ٧٥ طالبة إلى ترك المدرسة عندما تركتها **ملك** عقب زواجها عام ١٩٠٧ورحيلها إلى الفيوم.[٩]

وفي الفيوم لم تتوقف **ملك** عن الحركة والكتابة ، مقدمة بذلك نموذجًا للخطاب المسطور والمفعول في الآن نفسه. فكانت تقوم بانتظام بالكتابة للصحف في مجال الإصلاح المجتمعي العام، وتقوم بإعداد الخطب في الموضوع نفسه لتُلقى أمام المؤتمرات القومية، بل إنها قامت بوضع برنامج من عشر مواد يتضمن أطروحتها التفصيلية في إصلاح حال المرأة والمجتمع، وقامت بتكوين تنظيم نسائي يضطلع بالأهداف نفسها.

تفرُّد النموذج الذي تمثله **ملك**، لا يكمن فقط في توازي الخطاب المسطور مع الخطاب المفعول على أرض الواقع، بل فيما تمثله في ذاتها كرمز غير مختلف عليه من قبل سائر التيارات الفكرية التي

[٩] مجد الدين حفني ناصف (جمع وتبويب) ، آثار باحثة البادية (القاهرة: وزارة الثقافة والارشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٢) ، ص٤٧

عاصرتها أو التيارات الفكرية المعاصرة. فحتى هؤلاء الذين حملوا على قضية المرأة وتبنوا أكثر المواقف تمسكًا بالتراث الفقهي المتأخر بشأن المرأة لم يسعهم إلا الوقوف باحترام أمام باحثة البادية والحديث عنها كرمز وقدوة. ومن نافلة القول أن **ملك** كانت تُذكر دومًا كرمز للريادة في سائر كتابات الحركة النسائية ، وكتابات دعاة التغيير المجتمعي بوجه عام .

والطريف في هذا الإطار أن **ملك** في تصنيف الكثير من الأقلام الحديثة والمعاصرة النسوية وغير النسوية، تُصَنف ضمن "المحافظين"، ذلك رغم أن القارئ لخطبها ومقالاتها التي طبعت في العقد الأول من القرن العشرين، يلمس بوضوح القوة التي تميزت بها دعوة التغيير وإعادة التشكيل لدى **ملك** التي كانت سهام نقدها تتوجه نحو مراكز النفوذ الأدبي والمعرفي والسياسي في المجتمع فتصيب الطبقات العليا وتصيب الرجال وأولياء الأمور وأرباب الفكر التقليدي القائم على أفكار دينية مغلوطة، وأرباب التغيير الإحلالي على النمط الغربي.

كانت **ملك** من أبرز الأصوات النسائية التي دعت لإصلاح حال المرأة وأحوال المجتمع واعتبرت أن كلا الاثنين مفض للآخر. وبخلاف الأطروحات التي سبقتها، تميز طرح **ملك** بالارتباط الشديد بأرض الواقع بتفصيلاته ومعطياته وخبراته وامكانياته ، كانت أفكارها شديدة الحساسية للواقع بوجه عام ولواقع المرأة وتفاصيل حياتها اليومية وحالاتها النفسية واحتياجاتها المعنوية بشكل خاص.

لقد تميزت **ملك** ، ليس فقط لأنها رمز غير مختلف عليه يحتل مكانة مرموقة لدى سائر التيارات الفكرية ، بل لأنها – بخلاف كثيرات- لم تكتسب هذه المكانة عبر إعادة إنتاجها للقيم المجتمعية القائمة الخادمة لمصالح ذوي النفوذ ، وعلى رأسها القيم "الذكورية" (أي تلك القيم التي تستبطن الحط من شأن الأنثى والتمييز النوعي ضدها عبر أدوات الثقافة المختلفة ومنها الفهم الديني التاريخي والتقاليد وغيرها). بل إنها أنتجت قيمًا نسائية متفردة ليس فقط على مستوى مضمون الطرح، بل على مستوى منهج التعبير والحركة. وهو ما سنلمسه عند التعرض بالتفصيل لخطابها.

النشأة والتكوين:

ملك هي ابنة الأديب والعالم اللغوي حفني بك ناصف، يقال إن ولادتها صادفت يوم زواج الأمير حسين كامل[١٠] وكانت عروسه تدعى الأميرة ملك لذلك سميت ملك بهذا الاسم الذي شاع في ذلك الحين.[١١]

كان **حفني ناصف** (١٨٥٥-١٩١٩) أديبًا وشاعرًا ، تتلمذ على يد جمال الدين الأفغاني وصاحَب محمد عبده وقاسم أمين، وكان من محرري صحيفة الوقائع المصرية، كما كان يكتب في الأهرام واللطائف والجوائب المصرية وغيرها من صحف هذا الزمان، وقد اشتغل بالقضايا الوطنية والاجتماعية بجانب تخصصه الأساسي كباحث في علوم اللغة ينسب إليه تغيير أساليب الكتابة "من الطريقة البديعية المسجوعة الكثيرة التورية إلى طريقة الترسل..وشاركه في هذا الشيخ محمد عبده وابراهيم المويلحي والشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد.." وكان حفني أستاذًا لجيل من المفكرين البارزين منهم طه حسين وأحمد زكي باشا.. وقد تخرج من مدرسة الأزهر وعمل مدرسًا في مدرسة العميان والخرس ثم انتدب للتدريس في مدرسة الحقوق ثم عين قاضيًا ثم مفتشًا للتعليم ، وشارك في تأسيس الكثير من الهيئات العلمية، وكان من مؤسسي الجامعة المصرية.

[١٠] الشقيق الأكبر للملك فؤاد وابن الخديوي اسماعيل وسلطان مصر من سنة١٩١٤ إلى ١٩١٧.
[١١] جورجيت عطية ابراهيم ، هدى شعراوي :الزمن والريادة، الجزء الأول (دمشق: دار عطية للنشر، ١٩٩٨) ص٦٦

وكجزء من النخبة الفكرية التي حركت الحياة الاجتماعية في أواخر القرن التاسع عشر ودعت إلى الإصلاح، كان حفني ناصف من المهتمين البارزين بقضايا المرأة كمدخل رئيس للاصلاح، الأمر الذي نلمسه في حياته الشخصية وعلاقاته بأبنائه وبناته ، كما نلمسه في حياته العامة ، ففي خطبة له في مدرسة للبنات قال "إن الله لما أوجد العالم جعل من كل شئ زوجين اثنين وأوجد من كل نوع شكلين ليتم بذلك كمال الإبداع، ويحصل ما أراده سبحانه وتعالى من بقاء تلك الأنواع.....والشريعة المقدسة إذ حثت على الاعتناء بشأن النساء ..إلا أننا نرى أكثر الشرقيين متساهلين في أمرهن ضاربين صفحًا عن تربيتهن وتهذيبهن" ويقول "الانسان يتربى في ثلاث من المدارس متتاليات ..مدرسة الأمهات..مدارس الفنون والمهن..مدرسة الزمان..، وأس هذه المدارس مدرسة الأمهات....فينبغي تهذيبهن ليترشح الأبناء إلى إصلاح المعاش والمعاد وينهجوا من أول أمرهم مناهج الرشاد، وهذا هو سبب تأخر أبنائنا الشرقيين وتقدم أمثالهم من الغربيين"[١٢]

أما أم ملك فهي **سنية عبد الكريم جلال** (١٨٦٩-١٩٤٢) وكانت حسب رواية ابنتها كوكب متعلمة، ليس تعليمًا رسميًا لكنها تلقت تعليمًا في بيتها ككثير من فتيات هذا العهد اللائي كن يتعلمن القراءة والكتابة وحفظ القرآن على أيدي معلمات في المنازل.

وكانت ملك الأخت الكبرى لسبع من البنات والبنين، البنات هن –بعد ملك- حنيفة (١٨٩٨-١٩٧٣) وكوكب (مولودة عام ١٩٠٥) والأولاد هم :جلال الدين (١٨٨٩-١٩٦٠) ومجد الدين (١٨٩١-١٩٧٨) وعصام الدين (١٩٠٠-١٩٧٠) وصلاح الدين (١٩٠٢-١٩٧٧) .

وقد عمل جلال الدين محاميًا ثم قاضيًا، وكان مجد الدين أستاذا بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول، وعمل في المجلس الأعلى للآداب والفنون، وعملت حنيفة بالتدريس وتدرجت في الوظائف إلى أن أصبحت مفتشة في وزارة التعليم، ودرس عصام الدين الزراعة في ألمانيا وعمل مدرسًا وله مؤلفات عن تاريخ الأديان، وعمل صلاح الدين وكيلا لوزارة الصحة، وسافرت كوكب سنة ١٩٢٢ في أول بعثة للبنات لدراسة الطب في انجلترا وعادت بعد ١٠سنوات وعملت في مدرسة كتشنر وأصبحت مديرة المستشفى.[١٣]

وقد أثر وجود ملك في هذا المنزل المؤمن بقضية العلم بشكل أصيل على طبيعة فكرها وعلى موقفها من الحياة، فلم تكن ملك جزءًا من حريم اعتيادي ينظر للمرأة فيه نظرة مختلفة عن الرجل من حيث حقوقها في تلقي العلوم والمعارف، على العكس كانت الفتيات في بيت ناصف على قدم المساواة مع أشقائهن من الذكور في سلوك شتى مسالك المعرفة، وهو موقف لم يتخذه الأب نتيجة للتأثر بأفكار مستوردة بقدر ما اتخذه نتيجة لكونه في ذاته رجل علم مؤمن بالإصلاح القائم على احترام الذات والأصول ، من هنا سنلمس فيما بعد كيف كان الموقف الفكري لملك في التعامل مع الغرب موقف يتميز بقدر كبير من الثقة بالذات والانفتاح والحوار البعيد عن الذوبان في الآخر.

التحقت **ملك** في بداية عهدها بالدراسة بالمدارس الفرنسية ، ثم نقلت إلى مدرسة السنية فور إنشائها، وكان التعليم فيها بالفرنسية، ونالت منها الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٠، ثم التحقت بقسم المعلمات الذي كان التعليم فيه بالإنجليزية، ، ثم حصلت عام ١٩٠٣ على شهادة المعلمات وقضت بعدها عامين في التمرين على مهنة التدريس ثم قامت بالتدريس في السنية .

---

[١٢] انظر في حياة حفني ناصف ونثره :
محمد مهدي علام وعبد الحميد حسن (تحرير)، نثر حفني ناصف (الجمهورية العربية المتحدة:المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية،١٩٦٠).

[١٣] هدى الصدة (تحرير وتقديم)، باحثة البادية (القاهرة : ملتقى المرأة والذاكرة،١٩٩٩)

وجمعت **ملك** منذ صغرها علاقات صداقة بسيدات فرنسيات وانجليز ، يقول مجد الدين أن ملك كانت تستعين في قراءتها الفرنسية بسيدة تدعى مسز ديفونشير (حيث تزوجت بمحام انجليزي في المحاكم المختلطة بالقاهرة) وفي دراساتها بالإنجليزية بسيدة إنجليزية تدعي مس جونسون. فضلاً عن الاستعانة بوالدها في قراءاتها بالعربية، مما جمع لها معرفة بأمهات الكتب في اللغات الثلاث. وغير هاتين السيدتين تمتلئ سيرة باحثة البادية بأسماء لسيدات أجنبيات عشن في مصر أو مررن بها وجمعتهن بها علاقات صداقة وطيدة.

من هؤلاء الكاتبة الإنجليزية شارلوت كمرون التي كانت عضو الجمعية الجغرافية الملكية بلندن والتي زارت مصر، ومرت بالفيوم –حيث استقرت ملك بعد زواجها- كي تلتقي بباحثة البادية، وقد أسفرت هذه الزيارة عن تخصيصها فصل في كتابها شتاء امرأة في افريقيا A Woman's Winter in Africa عن المرأة المسلمة ، تحدثت فيه عن ملك ومدحتها. وظلت علاقتهما فيما بعد بالمراسلة.[١٤]

بالمثل، وفدت إلى مصر الكاتبة الأمريكية إليزابيث كوبر ، صاحبة كتاب المرأة المصرية The Egyptian Woman الذي أهدته إلى "ملك الباسل" ونشرته في الولايات المتحدة وانجلترا ودول أخرى، حتى صار اسم ملك معروفًا في الصحافة الأمريكية. والثابت أنه كان لملك اطلاع وافي بالفكر الغربي في آخر تطوراته آنذاك ، عبرت عن ذلك شارلوت كمرون بقولها –على إثر لقائها بملك - " وإنها لتناقشك في دارون وسبنسر بشكل يدعو إلى الإعجاب"[١٥]

وكان لملك علاقاتها الطيبة بسيدات شرقيات مثقفات، منهن السيدة **خالدة أديب** التركية التي قابلتها في اسطنبول ، وقد صارت خالدة أول وزيرة في تركيا بعد أن اختارها كمال أتاتورك وزيرة للمعارف وعن طريقها كانت ملك تنشر في صحيفة الجون ترك التركية.

وكذلك كانت ملك تراسل **أميرة بهوبال بالهند** وهي سيدة كانت لها رؤيتها الإصلاحية الواضحة المرتكنة إلى أسس إسلامية، والتي لمسها أحد المسئولين الانجليز، وهو السير "ريشار وود" وضمّنها في تقرير رسمي نشرته الدولة الانجليزية.[١٦]

وداخل منزلها، لم تكن ملك فحسب أختا كبرى لأشقائها السبعة، بل كانت واقعيًا وفي ظل مرض الأم واعتزالها وانشغال الأب الدائم –كما يقول مجد الدين- تمارس دور الأم لأشقائها الذين كانت تكبرهم بما يتراوح بين ثلاث سنوات لأكبرهم و١٩ عاماً لأصغرهم. يقول مجد الدين "كانت في الأجازات المدرسية تذهب لبيت أبيها فتشعر بعبء عليها في حسن إدارة هذا البيت، لأن والدتها كانت مريضة في أغلب الأوقات، فكانت تجمع إخوتها .. وتلقي عليهم في شكل حكايات ما كان يدور حولها في المدرسة، فوسعت مداركهم وكانوا يحبونها كصديقة فكان أصحابهم يرونهم يبكون طويلا عقب فراقها ويتهللون لحضورها، ومن أحسن صفاتها الحنان، فإنها كانت تحب والدها لدرجة التضحية فإذا مرض مرضته، وإذا سافر قامت مقامه وكانت تعمل بيديها كل ما يلزم للمنزل من حياكة وترتيب حتى توفر على أبيها".[١٧]

---

[١٤] ملك حفني ناصف ، النسائيات (القاهرة ، مطبعة التقدم، ١٩٢٥) ص١٤

[١٥] آثار باحثة البادية، مرجع سابق، ص ٦٠

[١٦] ريشار وود ، الإسلام والإصلاح : تقرير رسمي وضعه السير ريشار وود ونشرته الدولة الإنجليزية في الكتاب الأزرق (د.م:د.ن، ١٩١٢) وفيه يورد ريشار تحت عنوان :مركز المرأة في الإسلام، خطابًا أرسلته الأميرة إلى ناظرة مدرسة البنات العليا بإسلام آباد تقوم فيه وبلهجة هادئة بالدفاع عن مركز المرأة في الإسلام ردًا على الاتهامات المنسوبة إلى الإسلام، ونعرف من الحاشية أن الشيخ عبد العزيز جاويش عربه ونشرته جريدة الأخبار . ويتخذ ريشار من الخطاب وصاحبته دليلاً للدفاع عن الإسلام وتعاليمه وصورة المرأة المسلمة .

[١٧] النسائيات، ص١١

هذا الدور الرعوي كانت ملك تمارسه في دوائر أوسع من أسرتها، فيروي عنها شقيقها مجد الدين، أنها كانت "تؤم بيوت صاحباتها ومعارفها وما تزال بهن حتى ترسلن بناتهن إلى المدرسة السنية، على أن ترعى هي أولئك الصغيرات رعاية خاصة. وبذلك دخل هذه المدرسة في عهد (ملك) كثيرات ممن كان أهلوهن يبقينهن في البيت أو يؤثرن إرسالهن إلى المدارس الأجنبية التي كانت إذ ذاك لا تلقن التلميذات شيئاً من لغة البلاد أو تاريخها أو قوميتها أو دينها فينشأن نشأة أجنبية بحتة".

وبعد نجاحها في اختبار الدبلوم عام ١٩٠٣ كان عليها أن تمضي عامين في التدريب –كمرحلة مكملة- قبل أن تتسلم شهادة الدبلوم حسب نظام المعارف آنذاك، ورغم ذلك فقد سمحت المعارف لملك بأن تزاول التدريس لقريناتها وهي بعد في السادسة عشرة.

وعندما تزوجت وانتقلت إلى قصر الباسل بالفيوم "ألفت الأعراب يعيشون في حالة بدائية لا يعرفون العلم ولا النظافة ولا الصحة ولا الإنسانية إلا بالسماع. ووجدت ساداتهم وكبراءهم – وكانوا من أرباع المتعلمين- ينعمون بجهل أولئك وإملاقهم وتأخرهم. فعمدت (ملك) بعد لأي إلى إرسال بنيهم وبناتهم إلى بعض مدارس الفيوم والقاهرة وإلى إعطاء المتخلفين الفرصة في مكتب بالقرية وفي عنايتها بصحتهم وملبسهم وتغذيتهم ورفع مستواهم بما كانت تقوم به شخصياً دون عون".[١٨]

دور الراعية/ المصلحة امتد أيضًا ليشمل بعضًا من رفيقات الفكر شمولاً معنويًا ، من هؤلاء الأديبة والكاتبة **مي زيادة**. ولدت مي في ديسمبر من عام ١٨٨٦ نفس العام الذي ولدت فيه باحثة البادية في مدينة الناصرة بفلسطين من أب لبناني وأم فلسطينية وتلقت علومها الأولى في الناصرة ثم انتقلت إلى بيروت حتى أكملت دراستها الثانوية، انتقلت بعدها مع والدها الصحفي إلى القاهرة، حيث أخذت تعمل في التدريس لدى العائلات الثرية، وتابعت دراسة الانجليزية والألمانية وفي عام ١٩١٠ نشرت ديوانا بالفرنسية، ثم اشتغلت بالترجمة عن الفرنسية والألمانية، فضلا عن صالونها الأدبي الذي شارك فيه نخبة من رجالات مصر الثقافية والسياسية[١٩].

وقد ارتبطت مي والباحثة بعلاقة صداقة حميمة واشتهرت مراسلاتهما البينية التي تداولتا فيها كثيرًا من القضايا الاجتماعية والفلسفية.

كان **زواج** الباحثة من النقلات المهمة في حياتها، فرغم أنها رفضت الكثير من الخاطبين تمسكًا باتمام التعليم والعمل في التدريس، فقد جاء زواجها نتيجة وساطة قوية من قبل صديق والدها الشيخ عبد الكريم سلمان، وكان هذا رئيس المحكمة الشرعية العليا كما زامل حفني ناصف كأحد محرري الوقائع المصرية ، وقد اختار **ملك** عروسًا لمن عرّفه لوالدها بأنه أحسن الرجال خلقًا وعربي أصيل وأديب مطلع، وهو عبد الستار الباسل وجيه قبيلة الرماح بالفيوم، وقد وافق حفني وابنته على الزواج لما علماه عن أخلاق الزوج ومكانته، ثم انتقلت **ملك** إلى أملاك زوجها في الفيوم وسمت نفسها باحثة البادية.

وداخل بيت زوجها اكتشفت **ملك** أن زوجها أخفى عنها وعن أسرتها حقيقة أن له زوجة أولى هي ابنة عمه ولها منه بنت وحيدة وأنه غير قادر على الإنجاب مرة أخرى. اجتمعت لملك حينذاك معاناة وضع الزوجة الثانية مع معاناة الحرمان من الأطفال ، مع المرض الذي بدأت نوباته تهاجمها، ومن ذلك آلام عرق النسا التي فشل في تخفيفها العلاج الحديث، فلجأت أسرتها إلى علاج بدوي كان يتضمن الكي بمسامير ضخمة فوق موضع الألم دون تخدير.[٢٠]

---

[١٨] آثار باحثة البادية ، ص٥٣

[١٩] خالد محمد غازي ، جنون امرأة :مي زيادة (القاهرة: دار النهار للنشر والتوزيع، ١٩٩٤) ص١٥

[٢٠] آثار باحثة البادية، ص٤٥

هذه الآلام ، مع الكتمان ، ربما كانت هي الأسباب التي اجتمعت لتضع حدًا لحياة الباحثة القصيرة التي توفيت عام ١٩١٨ عن ٣٢عاماً.

الخطاب الذي قدمته باحثة البادية:

تعدد خطاب ملك إلى عدد من الأشكال :

شكل كتابي : يمكن رصده في مجموعة المقالات والرسائل التي بدأت تكتبها من الفيوم وتوقعها باسم باحثة البادية وتنشرها في جريدة "الجريدة" والتي تم جمعها فيما بعد في كتاب النسائيات الذي قدم له أحمد لطفي السيد، وصدره مجد الدين حفني ناصف بترجمة لملك، وأضيف إليه في طبعات أخرى تقاريظ لملك، ورسائلها مع مي، وكلمات ألقيت في حفل تأبينها.[٢١]

شكل منطوق: ممثل في الخطب التي استهلت بها خطابة النساء في عصرها ، حيث كانت تلقي محاضرات عامة على السيدات، ألقت أولاها في دار صحيفة (الجريدة) لسان حال حزب الأمة بمساعدة أحمد لطفي السيد، ثم اتجهت إلى الجامعة المصرية وألقت عليهن خطباً أخرى فيها وفي دور الجمعيات التي أسستها. وكما يقول مجد الدين "كانت الخطابة من أدواتها الطيعة ذات التأثير المباشر". وينقل عن أحمد زكي باشا قوله "لقد أعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم في ميدان الكتابة والخطابة".

شكل حركي : تمثل في جهادها الباكر لتحسين حال النساء المسلمات، من خلال فتح منزلها أمامهن للنقاش والتوعية، فضلاً عن الجمعيات التي أسستها والتي شاركت في تأسيسها، ورحلاتها حول العالم ، واشتراكها في المؤتمرات (حيث كانت أول من مثلت النساء المصريات في مؤتمر، وكان ذلك في سنة ١٩١١ في مؤتمر عقد بدار سينما روكسي الشتوية، بمصر الجديدة، وهو المؤتمر المصري الأول برياسة صاحب الدولة رياض باشا، وحضور ممثلين عن جميع أنحاء القطر المصري، لبحث شتى الإصلاحات والتوجيهات التي يجدر بالأمة والحكومة انتهاجها-حسب تعبير مجد الدين حفني ناصف).[٢٢]

فضلاً عن دعمها المالي لكثير من المشروعات التي استهدفت الاصلاح الاجتماعي والفكري مثل مشروع الجامعة المصرية، الذي بدأ الحديث عن إحيائه وهي بعد مدرّسة في السنية فبادرت بتشكيل لجنة وجمعت قدراً من المال ذكر على وجه التحديد في التقرير الأول الذي رفع إلى رئيس الجامعة، رغم أن هذا التصرف لم يكن مما يرضى عنه المستشار الإنجليزي لوزارة المعارف آنذاك.[٢٣]

---

[٢١] نشرت ملك باديء ذي بدء مقالاتها في "الجريدة" ثم جمعت وطبعت في كتاب النسائيات لأول مرة عام ١٩١٠ في مطبعة الجريدة وقدم له أحمد لطفي السيد، وفي سنة ١٢٩٥ أعادت المكتبة التجارية طبع الكتاب في مكتبة التقدم وأضافت إليه رسائل متبادلة بين ملك ومي زيادة ومقالة عن ملك بقلم أخيها مجد الدين حفني ناصف مع عدد من الخطب والقصائد التي ألقيت في تأبينها، وفي سنة ١٩٦٢ أعاد مجد الدين ناصف نشر أعمال ملك في كتاب بعنوان "آثار باحثة البادية". هدى الصدة (محررة) ، باحثة البادية (القاهرة : ملتقى المرأة والذاكرة،١٩٩٩) .

[٢٢] آثار باحثة البادية، ص٥٢و٥٣

[٢٣] المرجع السابق ، ص٤٧و٤٨

وتمثلت الجمعيات التي أسستها ملك في :[٢٤]

(١) (اتحاد النساء التهذيبي) وكان يضم كثيراً من السيدات من مصر والبلاد العربية الأخرى وبعض الأجنبيات، واستهدف الارتقاء بالنساء من جهة التعليم والتربية. وكان الاتحاد يعقد اجتماعات أسبوعية تحضرها عضواته.

(٢) "جمعية للتمريض" على غرار الصليب الأحمر (وتأسس الهلال الأحمر بعد ذلك بقليل) لإرسال الأدوية والأغطية والملابس والأغذية إلى الجهات المنكوبة بمصر، وإلى البلاد الشقيقة كلما مست الحاجة. وكان الدافع لإنشاء هذه الجمعية هو بدء الغزو الايطالي لليبيا ، يروي مجد الدين عن ذلك قائلاً: "وأذكر أنها خاطت بيدها مائة بذلة للجرحى، فلما سألتها: لماذا لا تؤجر من يخيطها؟ قالت: يحسن أن نحس ببعض التعب ليزداد شعورنا بالواجب".

(٣) "مدرسة لتعليم السيدات التمريض، أنشأتها في بيتها إذ ذاك (بشارع أفراح الأنجال بالمنيرة)، وعلى حسابها الخاص بما في ذلك الأدوات الضرورية ومكافآت المدرسات والعاملات؛ وكانت تسند رئاسة هذه الجمعيات إلى غيرها لتبعد نفسها عن المنافسة وتتفرغ للعمل".

(٤) وضعت ملك برنامجاً لمشغل للفتيات وملجأ للمعوزات. وكانت تملك خمسة وثلاثين فداناً بالفيوم (اشترتها بمالها الذي ادخرته مما أخذته من والدها، ومن بيع الجواهر التي أهدتها إليها بعض الأميرات والمصريات الكبيرات) وقررت أن تهب هذه الأرض للمشغل والملجأ. لكنها لم تتمكن من تأسيس المشغل والملجأ، لأن الموت دهمها في الثانية والثلاثين من عمرها. وقد آل نصف هذه الأرض مع كل ما تبقى لديها من مصوغات إلى زوجها عبد الستار الباسل الذي كان يملك وحده ألفين من الأفدنة.

وقد وضعت ملك برنامجًا لإصلاح حال المرأة كمدخل لاصلاح حال الأمة تضمنته كلمتها في "المؤتمر المصري الأول" ، حيث قالت لو كان لي حق التشريع لأصدرت اللائحة الآتية:[٢٥]

المادة الأولى: تعليم البنات الدين الصحيح تبعاً لتعاليم القرآن والسنة الصحيحة.

المادة الثانية: تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الابتدائي إجبارياً في كل الطبقات.

المادة الثالثة: تعليمهن التدبير المنزلي وقانون الصحة وتربية الطفل والإسعافات الأولية.

المادة الرابعة: تخصيص عدد من البنات لتعلم الطب بأكمله وفن التدريس لتغطية هذا الجانب النسائي في مصر.

المادة الخامسة: إطلاق الحرية في تعلم غير ذلك من العلوم العالية لمن تريد.

المادة السادسة: تعويد البنات الصدق والجد في العمل والصبر وغيرها من الفضائل.

المادة السابعة: اتباع الطرق الشرعية في الخطبة. فلا يتزوج اثنان قبل أن يجتمعا بحضور محرم.

المادة الثامنة: اتباع عادة نساء الأتراك في الحجاب والخروج.

المادة التاسعة : المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغرب بقدر الإمكان

المادة العاشرة: على إخواننا الرجال تنفيذ مشروعنا هذا.

---

[٢٤] المرجع السابق، ص٥١-٥٢

[٢٥] آمال كامل بيومي السبكي، الحركة النسائية في مصر ما بين الثورتين ١٩١٩و١٩٥٢(القاهرة:الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦) ص٩٦-٩٧.

وأضافت إلى هذه المواد اقتراحات أخرى ضمت:

الاقتراح الأول:

يحض على أن تذهب النساء سواء في المدن والقرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ في المعابد، كما لها حرية الحياة الحقيقية وحرية النفس من ربقة الاستعباد. وحرية التصرف بالمال، وحرية الامساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان وحرية الرأي.

الاقتراح الثاني:

فهو حول جعل التعليم الأولى إجبارياً والاكثار من المجانية على قدر الامكان في مدارس البنات الموجودة حالياً أو إنشاء غيرها لهذا الغرض على أن تخصص لهن من الأموال الخيرية ما يسد العجز، ويفي بالحاجة وطالبت الجمعيات الخيرية وأغنياء الأمة بتعليم الفقيرات من أبنائها وبناتها ليساعدوا على ترقية الأمة.

قضايا الاهتمام لدى باحثة البادية:

تعددت القضايا التي انشغلت بها ملك ، وتميزت بأنها كلها قضايا اجتماعية بحتة، تنطلق من استقراء الواقع المحيط ورصد مشكلاته ومجابهة أسبابها، من هذه القضايا :

١ـ نقد منظومة التقاليد والعادات الاجتماعية:

اعتبرت ملك منذ البداية أن مشكلة المجتمع المصري هي أنه يعج بعدد كبير من التقاليد والأعراف الفاسدة ،هي المسئولة عن تدهور وضع المرأة وعن تخريب البنية الاجتماعية والأخلاقية للأسرة ومن ثم للأمة كمجموعة من الأسر، فهي تنتقد حب المظاهر والترف والتقليد الأعمى للغرب والنفاق والشكلانية في تطبيق التعاليم الدينية دون اعتبار محتواها القيمي والروحي.

تقول مثلاً "نحن المصريين نحب الظهور والفخفخة بغير نظر إلى النفس وفضائلها"[٢٦]، وتقول في موضع آخر "وأني أجاهر بأن حجابنا مقلوب ونظام اجتماعنا فاسد أشد الفساد لا يصلح ولن يصلح لأن تتبعه أمة متمدينة"[٢٧].

الخطبة والزواج:

يذهب جل اهتمام ملك في هذا الباب إلى مسألة الزواج بدءا من الخطبة إلى المعاشرة بين الزوجين إلى عادة تعدد الزوجات، تقول "طريقة الزواج في مصر طريقة معوجة عقيمة نتيجتها في الغالب عدم الوفاق بين الزوجين".[٢٨]

وتُرجع شقاء الزوجين وعدم الوفاق بينهما إلى عدة أسباب تمثل في ذاتها عددًا من التقاليد والأعراف الاجتماعية هي:

---

[٢٦] النسائيات، ص١٥

[٢٧] المرجع السابق، ص٣٨

[٢٨] المرجع السابق، ص٣٧

جهل أحد الزوجين بالآخر- زواج مختلفي الطباع كعالم وجاهلة وبالعكس أو غنى وفقيرة ومختلفي الدين والبلد- الطمع في الغنى بغير نظر إلى الأخلاق- الزواج القسري- تأويل الدين الحنيف على غير ما أريده منه في أحكام الزواج والطلاق.[٢٩]

تعدد الزوجات :

نالت قضية تعدد الزوجات اهتمامًا كبيرًا من جانب ملك، ربما لأنها تجربة تعرضت لها شخصيًا، أو لأنها تجربة رأتها متكررة في المجتمع البدوي الذي عاشت فيه ولمست آثارها النفسية والاجتماعية على المرأة والأسرة ككل.

تقول "تعدد الزوجات مفسدة للرجل، مفسدة للصحة، مفسدة للمال، مفسدة للأخلاق، مفسدة للأولاد، مفسدة لقلوب النساء ، والعاقل من تمكن من اكتساب قلوب الغير فكيف بقلوب الأهل والعشراء."[٣٠]

وقد اجتهدت من ثمَّ في عرض مشكلة تعدد الزوجات من سائر جوانبها، مركزة على تأثيراتها المعنوية الاقتصادية الأخلاقية على الأسرة، وتَميز طرحها بحس أنثوى تجسد في مراعاة الأبعاد النفسية والعاطفية في علاقة الزواج كعلاقة قائمة على الأبعاد المعنوية والدواخل في الأساس، تقول راثية المرأة التي يتزوج زوجها بأخرى "يالله أليس لها قلب يتأثر وشعور يحس وعواطف تثور"[٣١].

الحد الأدنى لسن الفتاة عند الزواج:

اهتمت ملك بمناقشة مسألة تحديد الحد الأدنى لسن الزواج للفتيات ، وذلك من منظور وظيفي يعنى بقدرة الفتاة على تحمل مسئولية الأسرة "وإني لا أوافق بعض الأطباء الذي كتب في الجرائد مرة ينص على أن سن البلوغ يجب أن يكون هو بعينه سن الزواج. إذ بالله ماذا تفهم فتاة في الثانية عشرة من معنى الزواج وماذا تعلم من أمور البيت وماذا تعمل لو رزقت بأولاد."[٣٢]

أساليب التربية :

تعول باحثة البادية كثيرًا على نمط التربية الذي يتلقاه النشء في إحداث الإصلاح المنشود على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي، فهي تعتبر أن التربية الخاطئة هي المسئولة عن سائر عاداتنا السيئة ، ومنها عدم احترام النساء "إن شبابنا لم يتعودوا احترام النساء، وذلك نقص في التربية الاجتماعية يجب أن يتداركوه."[٣٣]

وتركز على نتائج اختلاف طرائق التعليم والتربية في إيجاد أوضاع اجتماعية وهياكل أسرية جديدة مبنية على فهم جديد للأمور : "الفتاة كانت اذا شبت وجدت والدتها تعيش مع ضرة أو أكثر ورأت خالتها وعماتها على تلك الحال، وكذلك صويحباتها ومعارفها، فلم يكن ذلك بالشيء الغريب، فإذا جاء دورها وتزوجت من رجل له زوجة أخرى وجدت أنه لم يخرج عن المألوف، وأنه تابع لعادة أهل عصره ومصره فلم يكن يحسن بها إذن أن تبدي شكواها من أمر عادي يأتيه كثير غير زوجها، ولو إنه يؤلمها في

---

[٢٩] المرجع السابق، ص٤١
[٣٠] المرجع السابق، ص٤٣
[٣١] المرجع السابق، ص٢١
[٣٢] المرجع السابق، ص٤٥
[٣٣] المرجع السابق، ص٣٩

قلبها ويجرح عواطفها. وكذلك كانت التربية غير ما نراها اليوم، فبنات العصـــر الحالي حتى الجاهلات منهن يفهمن الحياة أكثر من أمثالهن الغابرات فأصـــبحن لا ترضـــيهن الكســـوة والطعام فقط كأحد خدم المنزل، ولكنهن يقدرن اليوم الســـعادة الزوجية أكثر من ذي قبل، ويعلمن أنه إذا لم يكن الحب أســـاس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما، يتنافران ويتشاحنان كأمثال الديكة الخرقاء"[٣٤].

٢- الدفاع عن حقوق المرأة الأساسية (حقوق المواطنة) :

وعلى رأسها الحصول على وضع متساو مع الرجل في الحقوق والواجبات، والتمتع بحق التعليم والعمل.

المساواة:

آمنت ملك بأن المرأة تقف على قدم المساواة مع الرجل لا يفرق بينهما إلا ما يؤهل كلاهما لأداء مهمته التي تتكامل مع الآخر في إطار العمران. وهي تؤكد في غير مكان على أن المرأة ليست كائنا خاصًا، بل فردًا عاديًا من الأمة له الحقوق نفسها، وعليه الواجبات والمسئوليات نفسها، تقول عن الرجال "لا أريد أن يسجدوا لنا بل أن يفسحوا لنا الطريق ان ازدحمت ولينظروا إلينا كما ننظر إليهم أناساً مثلهم"[٣٥]

وهي تؤكد على الشـــخصـــية المســـتقلة المتكاملة للمرأة ، تقول مســـتنكرة "ولا يغيظني أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشـــفقون علينا، إننا لســـنا محلا لإشـــفاقهم وإنما نحن أهل لاحترامهم فليســـتبدلوا هذا بذاك، والاشـفاق لا يتأتى إلا من سـليم لعليل أو من جليل لحقير فأي الصـنفين يعتبروننا؟ تالله إنا لنأنف أن نكون أحد هذين".[٣٦]

وهي تطرح **فكرة المســـاواة بين الرجل والمرأة عبر تكاملهما في أداء مهمة العمران** "لم يخلق الله الرجل والمرأة ليتباغضا ويتنافرا وإنما خلقهما الله ليسكن أحدهما إلى الآخر فيعمر الكون، إذ في ائتلافهما بقاؤه. ولو انفرد الرجال في بقعة من الأرض وانعزلت النساء إلى أخرى لا نقرض الحزبان وحقت عليهما كلمة الفناء".[٣٧] بل إنها **تؤصل للمساواة في مبدأ التوحيد الإسلامي** نفسه "سمعت ان المرأة اليابانية تسجد لزوجها وعجبت من ذلك، وهي قد أخذت من التمدن الغربي حظاً وافراً ولكنها مشركة بالله، فلا غرو إذن أن صدق ما سمعته عنها في هذا الشأن. فلعل رجالنا المستكبرين الذين ستغضبهم مقالتي هذه أن يخطبوا منهن فإننا مسلمات مؤمنات لا نشرك مع الله أحداً ، أو أوْلى لهم إذا قبلوا أن يتحملوا مسئولية المحاكمة أن يختطفوا الجواري من جبال القوقاز أو من مجاهل افريقية ويدربوهن على عبادتهم من الصـــغر ولكن بأي لغة!!"[٣٨]

التعليم:

من هذا المنظور تحدثت ملك عن أهمية التعليم ، وحق المرأة فيه حتى لو اختارت ألا تعمل به "العلم منور للعقل على أي حال ســـواء عمل به أو لم يعمل به"[٣٩] مؤكدة على أن "الأم مهما تعلمت وبأي حرفة

---

[٣٤] المرجع السابق، ص٢٠
[٣٥] المرجع السابق، ص٣٩
[٣٦] المرجع السابق، ص١١٠
[٣٧] المرجع السابق، ص١٠٤
[٣٨] المرجع السابق، ص١٠٤
[٣٩] المرجع السابق، ص١١١

اشـتغلت فلن ينسـيها ذلك أطفالها أو يفقدها عاطفة الشـفقة والأمومة بل بالعكس إنها كلما تنورت أدركت مسؤوليتها"[٤٠].

وتقول شارحة وجهة نظرها ببساطة تميز خطابها الموجه إلى سائر الطبقات "وهل تفضل السيدة التي تعرف أن تطبخ البطاطس وتنسـق الأزهار فقط؟ أم التي تعرفهما أيضًـا ولكنها تعلم متى يؤكل البطاطس وهل يوافق زوجها المريض بالسكر أو جسمها السمين الذي تريد تضميره، وهل وجود أصص الزرع في حجرتها ليلا صـالح لرئتيها الضـعيفتين أم مضـر بهما. فهذه تعرف تدبير المنزل وتلك تعرفه ولكن تعلّم واحدة علم النبات يحفظ لها صحتها وصحة عيالها من التلف فضلا عما تشعر به من السرور الناشيء عن العلم."[٤١]

وفي تناولها لقضـية التعليم، اهتمت ملك "بنوعية التعليم" وهو أمر أملته خبرتها كمعلمة ، تعلمت في مدارس أجنبية ووطنية ثم اشتغلت بالتدريس، في هذا الإطار كانت ملك دائمة الدفاع عن المدارس الوطنية –رغم مشـكلاتها- من منطلق أن الأخيرة هي المنوطة بحفظ محددات الهوية من تاريخ وأخلاقيات، بينما المدارس الأخرى تقدم الثقافة الغربية "وأكثر الآباء وجميع الأمهات عندنا لا يقدرون من تعلم البنات الا العزف على "البيانو" والرطانة لأنهما ظاهران"..

"وهذه الفئة الجاهلة الدعية في العلم هي ولاشـك فئة خريجات مدارس الراهبات وكثير من المدارس الأهلية الأخرى، وقد خبرت مدارس البنات بأنواعها -ولا ينبئك مثل خبير- وحسـبك وقوفاً على مبلغ علم هؤلاء أن تسألهن سؤالاً بسيطاً عن بعض ما يلقينه على مسمعك مثل الببغاء فلا يحرن جواباً. أما التدريس في تلك المدارس فهو على النظام الذي أخنى عليه الدهر أو محفوظ عن ظهر قلب، وليس فيه للتعقل أو المحاورة نصيب يذكر، ثم إن إحداهن لتسمعك تاريخ فرنسا ولا تكاد تأخذ نفسها من سرعة الإلقاء واذا سألتها عن عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبي أو محمد الفاتح وأضرابهم من حماة الإسلام قالت لك لا أدري. ومدارس البنات في مصـر كلها خلا مدارس الحكومة الثلاث لا أثر فيها إلا تظاهر بالعلم ورياء ، وهى في اعتقادي لا تصلح مطلقاً لتربية البنات المصريات لأنها فضلاً عن قلة بضاعة العلم فيها تجعل تلميذاتها على خلق غير ملائم لنا... وبالجملة أقول ان أحسـن مدارس البنات في مصـر، هى مدارس الحكومة أخلاقاً وعلماً ، على انها لاتزال تقبل الإصلاح والرقى."[٤٢]

العمل :

تتخذ ملك موقفًا شديد القوة والوضوح في تأييد أهلية المرأة للقيام بجميع الأعمال وحريتها في الاختيار في هذا الإطار.

وهي تبادر بشـن هجوم على التوزيع التاريخي للعمل بين الرجل والمرأة ، "يقول لنا الرجال ويجزمون إنكن خلقتن للبيت، ونحن خلقنا لجلب المعاش ، فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند الله ومن أين لهم معرفة ذلك والجزم به ولم يصدر به كتاب؟ نعم إن الاقتصاد السياسي ليأمر بتوزيع الأعمال؟ ولكن اشتغال بعضنا بالعلوم لا يخل بذلك التوزيع. وما أظن أصل تقسيم العمل بين الرجال والنساء إلا اختيارياً. بمعنى أن آدم لو كان اختار الطبخ والغسـل وحواء السـعي وراء القوت لكان ذلك نظامًا متبعًا الآن، ولما أمكن أن يحاجنا الرجال بأنا خلقنا لأعمال البيت فقط. وها نحن أولاء لا نزال نرى بعض الأقوام كالبرابرة مثلاً يخيط رجالهم الثياب لأنفسهم ولأفراد بيتهم ويتجشم نساؤهم مشقة الزرع والقلع،

---

[٤٠] المرجع السابق، ص١٢٠

[٤١] المرجع السابق، ص١١١

[٤٢] المرجع السابق، ص٣٢،٣٣

حتى أنهن ليتسلقن النخل لجني ثمارها، وهانحن نرى نساء الفلاحين والصعايدة يساعدن رجالهن في حرث الأرض وزرعها، وبعضهن يقمن بأكثر أشغال الفلاحة كالتسميد والدراس وحمل المحاصيل ودق السنابل والبراعم (الكيزان) وسوق المواشي ورفع المياه بما يسمونه بالقطوة ، وغير ذلك من الأعمال التي ربما شاهدها منكن من ذهبت إلى الضياع (العزب) ورأت أنهن يقدرن عليه تمام القدرة كأشد الرجال، ونرى مع ذلك أولادهن أشداء أصحاء. فمسألة اختصاص كل فريق بشغل مسألة اصطلاحية لا اجبار فيها . وما ضعفنا الآن عن مزاولة الأعمال الشاقة إلا نتيجة قلة الممارسة لتلك الأعمال." [٤٣]

وتعود ملك للدفاع عن وجهة نظرها في أصالة حق المرأة في العلم والعمل انطلاقًا كعادتها من الأرضية الاجتماعية التي تشكل القاعدة الأعم في مصر، وبأسلوبها السهل الجزل نفسه تقول: "ولما كانت أشغال منزلنا قليلة لا تشغل أكثر من نصف النهار فقد تحتم أن نشغل النصف الآخر بما تميل إليه نفوسنا من طلب العلم، وهو ما يريد أن يمنعنا عنه الرجال بحجة أننا نشاركهم في أعمالهم. لا أريد بقولي هذا ان أحث السيدات على ترك الاشتغال بتدبير المنازل وتربية الأولاد إلى الانصراف لتعلم المحاماة والقضاء وإدارة القاطرات! كلا ولكن إذا وجدت منا من تريد الاشتغال بإحدى هذه المهن فان الحرية الشخصية تقضي بأن لا يعارضها المعارضون. قد يقولون إن الحمل والولادة مما يجبرنا على ترك الشغل وقد يجعلون ذلك حجة علينا. ولكن من النساء من لم تتزوج قط ومنهن العقيمات اللاتي لا ينتابهن حمل ولا ولادة. ومنهن من مات زوجها أو طلقها ولم تجد عائلاً يقوم بأودها. ومنهم من يحتاج زوجها لمعونتها. وقد لا يليق بهؤلاء ان يحترفن الحرف الدنيئة. بل ربما يملن إلى أن يكن معلمات أو طبيبات حائزات لما يحوزه الرجال من الشهادات. فهل من العدل أن يمنع مثل هؤلاء من القيام بما يرينه صالحاً لأنفسهن قائماً بمعاشهن؟ على أن الحمل والولادة إذا كان معطلين لنا عن العمل الخارجي، فهما معطلان لنا عن الأعمال البيتية أيضاً. وأي رجل قوي لم يمرض ولم ينقطع عن عمله وقتاً ما؟". [٤٤]

المقولات الأساسية :

في ترجمتها المتميزة لملك حفني ناصف[٤٥]، توزع الآنسة مي حديثها عن ملك على محاور ستة رئيسية : المرأة والمسلمة والمصرية والكاتبة والناقدة والمصلحة . ولكأن مي من خلال العناوين الثلاثة الأولى تقوم بتعيين دوائر ومحددات الوعي لدى ملك : الهوية الأنثوية -الهوية الحضارية -الهوية الوطنية، وبالعناوين الثلاث الأخيرة تجمع عناصر المنتج الفكري لها.

هذا التصنيف نجد له دلالته حين نعيّن أهم المقولات الأساسية للإصلاح في خطاب باحثة البادية وهي :

١- إن الدعوة لإصلاح المجتمع المسلم والمرأة المسلمة هي في ذاتها دعوة لتفعيل مباديء الإسلام وقيم الحق والعدل.

لم يكن الإسلام في خطاب ملك جزءًا من أهداف الفعل الإصلاحي، بل كان أحد وسائل الفعل الإصلاحي ، فلم يكن في ذاته محل جدل، بل كانت الفكرة أن ممارسات المجتمع ابتعدت عن الدين وقيمه الحقة ، ومن ثم تشمل عملية الإصلاح ذاتها العودة للدين.

---

[٤٣] المرجع السابق، ١٠٧-١٠٨

[٤٤] المرجع السابق، ص١٠٩

[٤٥] مي زيادة، باحثة البادية وعائشة التيمورية (القاهرة :دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال، يونيو ١٩٩٩)

هذه القضـية التي تبدو بديهية لكتابات مطلع القرن العشـرين ، اختلفت تمامًا في كتابات عقود متأخرة عندما بات الإسلام في ذاته جزءًا من الانقسامات الأيديولوجية وطرفًا فيها.

٢ـ تطوير "مدنية خاصة بالشرق" :

كانت ملك تتابع مظاهر التحديث الشكلي الذي يأخذ به المجتمع لا سيما الطبقات العليا، وتستنكره، داعية إلى نمط من التمدن يتوافق مع "روح الشـرق" على حد تعبيرها مقترحة في ذلك الأخذ بالعلم الغربي والاسـتفادة منه وتطويعه في إطار هذه المدنية الشـرقية التي دعت إليها، محذرة في الآن نفسـه من أن الاندماج اللاواعي في المدنية الغربية هو أمر منذر بالفناء. تقول :

"إننا لو سلمنا بما يقترحه الكتاب من ضرورة تقليد الغربيين في أمور معاشنا ولباسنا وزي بلادنا مما قد لا يوافق روح الشـرق ، فإننا نندمج فيهم ونفقد قوميتنا مع مرور الزمن ، وهذا هو قاموس الكون إذ يفني الضـعيف في القوي وإنه لمن العار أن نهمل هذا الأمر يجري مجراه.فادعوا الكتاب والباحثين للتفكير فيه وفي إيجاد مدنية خاصة بالشرق تلائم غرائزه وطبائع بلاده ولا تعوقنا عن اجتناء ثمار التمدن الحديث"[٤٦]

وتقول: "إذا أردنا أن نكون أمة بالمعنى الصحيح تحتم علينا ألا نقتبس من المدنية الأوروبية إلا الضروري النافع بعد تمصـيره حتى يكون ملائما لعاداتنا وطبيعة بلادنا نقتبس منها العلم والنشـاط والثبات وحب العمل، نقتبس منها أساليب التعليم والتربية وما يرقينا حتى نبدل من ضعفنا قوة، وإنما لايجوز في عرف الشرف والاستقلال أن نندمج في الغرب فنقضي على مابقى لنا من القوة الضعيفة أمام قوته المكتسحة الهائلة"[٤٧] .

وملك في ذلك لا تدعو إلى الانغلاق أو الانفصـال عن التجارب العالمية الأخرى، فقط تدعو إلى الوعي بالمصالح الوطنية و إعطائها الأولوية، تقول: "انصراف شبابنا لتلقي العلوم الحديثة في أوروبا يجب أن يكون لخير البلاد لا لشرها. فكما يتعلمون لنفع أنفسهم يجب أن يقرنوا ذلك النفع بنفع مواطنيهم أيضًا... فواجبهم الوطني يقضي عليهم بأن يدخلوا كل ما يرونه صالحًا في بلادهم مع الاستغناء عن الأجنبي على قدر الامكان"[٤٨]

إن ملك لا ترفض سـائر معطيات المدنية الأوربية ، بل ترفض تحديدًا التقليد الأعمى، الذي تمثل آنذاك في مظاهر البهرجة والترف وانتشار المسكرات وغيرها من العادات الخبيثة .

"إن المتتبع لسير نسائنا ليدهش من كثرة الفساد بين الطبقة العليا منهن وهي تعدي كالجرب غيرها من الطبقات، أين وازع الدين؟ أين زاجر العقل والآداب؟ يا قوم لا تغرنكم زخارف المدنية، وربوا بناتكم تربية إسلامية ، ولا بأس من اقتباس الحميد من المدنية الأخرى. وان تدهوركم هذا لآخذ بكم وبالوطن إلى مهاوي الاضمحلال ، وأي فساد أكبر من اندماج أمة في أخرى وتلاشي عاداتها وآدابها في اتباع سنن لا تتفق مع دينها ولا مع مدنيتها" [٤٩].

٣ـ الارتباط بين الإصلاح العائلي وإصلاح الأمة ككل:

[٤٦] النسائيات، ص٢٩
[٤٧] المرجع السابق، ص١٤٦
[٤٨] المرجع السابق، ص١٢٠
[٤٩] المرجع السابق ، ص٩٩

كانت ملك على وعي بالعلاقة الوطيدة بين حلقات الإصـــلاح بدءًا من العائلة إلى الأمة بكاملها، وحين تدعو أولياء الأمور والأزواج والزوجات إلى إصـــلاح ذات البين ونبذ الأعراف والتقاليد الفاســـدة ، فإنها دعوة في الوقت نفسه لتدعيم القاعدة المجتمعية، ومن ثم لترقية الوطن.

"فان كنتم ترضـــون لنظام بيوتكم بالاختلال، وللثقة بينكم وبين أزواجكم بالضـــياع، ولأمتكم بالتأخر ، فاســتمروا على فســادكم وان كانت فيكم بقية غيرة وحمية وتحبون وطنكم كما تدعون، فأصــلحوا أحوالكم تصلح حال نسائكم ونقوا ورد بيوتكم من شوك الهم ، وسنوا سنة صالحة لابنائكم وبناتكم من بعدكم، يكن لكم أجرها إلى يوم الدين ولله عاقبة الأمور".[٥٠]

٤- مسئولية المرأة في إصلاح وضعها والإصلاح المجتمعي العام :

عبر خطابها المسطور وتجربتها الشخصية العملية ، تؤكد ملك على واجب المرأة في الإصـلاح العام شاملاً وضعها كفرد مسئول في الأمة ، فتقول مؤكدة "السيدة الفاضلة هي التي ينال غيرها نفعها لا التي ترفل في الدمقس وفي الحرير"[٥١]

في إطار هذا تعمل ملك على **إعادة تعريف وصـياغة دور المرأة في المنزل** "المرأة صـاحبة البيت في الحقيقة لا الرجل، فإنها بما لها من القيام على ترتيبه وحفظ من وما فيه، تسري سلطاتها على من يسكنونه معها من زوج وأولاد وخدم."[٥٢] ومن ثم فهي تؤكد على أهمية هذا الدور وما يمكن أن يقدمه للإصـــلاح العام إذا ما تم تعليم السيدات وتربيتهن تربية سليمة :

"وفي القرى يمكن بث التعاليم المناسبة لأهلها، فتستفيد منها كثير من النساء الجاهلات كتسويقهن للنظافة، وإلقاء بعض النصـائح الصـحية عليهن، وحثهن على إرسـال بعض أولادهن للكتاب وتعويدهن الاطمئنان لتحوطات الأطباء أيام الأوبئة، وتشـجيعهن عند أخذ أولادهن للجندية وغيره كثير، وقد جربت ذلك بنفسـي ويسرني أنه ناجح والحمد لله".[٥٣]

الأهم أن ملك لا تكتف بتأكيد دور المرأة في الإصـلاح فحسـب، بل تهتم بالمثل بأن **يكون للمرأة رؤيتها الخاصة في الإصلاح وإصلاح شئونها** بشكل خاص، مميزة في ذلك بين الرؤية النسوية والرؤية التي قد يقدمها الرجال في قضـــايا المرأة. الأمر الذي يتضـــح جلياً حين تناقش قضـــية الحجاب . فقد اختارت ملك مبدئيًا أن تنزل مسألة الحجاب-على خلاف سائر المتكلمين في قضية المرأة- منزلة هامشية ، معتبرة إياه بندًا متأخرا من بنود التغيير الإيجابي المطلوب في شـــأن المرأة. وهي تقول مســـتنكرة أن تتبع المرأة نهج الرجال دون تمحيص: "..إذا أمرنا الرجل أن نحتجب احتجبنا وإذا صـاح الآن يطلب سـفورنا أسـفرنا وإذا أراد تعليمنا تعلمنا . فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا، ولأجلنا أم هو يريد بنا شرًا؟ لاشك إنه أخطأ وأصاب في تقرير حقنا من قبل، ولا شك انه يخطئ ويصيب في تقرير حقوقنا الآن" [٥٤].

وقد اختارت أن **تناقش الحجاب من وجهة اجتماعية صرفة** دون أن تغلق الباب أمام التغييرات المحتملة بفعل التغيرات الاجتماعية التي قد يحملها المستقبل.

---

[٥٠] المرجع السابق، ص٢٣

[٥١] المرجع السابق، ص ٩٤

[٥٢] المرجع السابق، ص٩٧

[٥٣] المرجع السابق، ص٩٤

[٥٤] مي زيادة، مرجع سابق ، ص١٦٩

"واذا انتقدته –أي رفع الحجاب- من تلك الجهة –أي الوجهة الاجتماعية- فإني لا أقلد فيه عادة، ولا أتبع رأي غيري، بل أصرح بما أشاهده عياناً وبما أعرفه من أحوال شتى جربت فيها النساء المختلفات....وعليه فلسنا متبعات رأي من يأمرنا بالحجاب، ولا رأي من يقول بخلعه لمجرد أن هذا تعب وكتب. وذاك نقب وخطب، إلا إذا تبينا الرشد من الغي وعلمنا من التجارب أولى الخطتين بالاتباع، وأمامنا الطبقات المختلفة والأجناس العديدة يجب أن يبحث كلا منها على حدته، ونجمع منها كلها حكماً واحداً نحكم به على أنفسنا، إما بالحجاب أو بالسفور أو غير ذلك"[٥٥]

٥- مسئولية الرجل في سوء وضع المرأة ومسئوليته في الإصلاح

دأبت ملك على توجيه سهام نقدها للرجال والنفاق الاجتماعي الذي يمارسونه ضد المرأة بتمييزهم بين المرأة الوطنية والمرأة الأجنبية، وإدعاءات التمدن التي يروجونها ولا ينفذونها،

"زار أغلب رجالنا أوروبا والبلاد المتمدينة ورأوا بأعينهم كيف يحترم الرجل الأوروبي امرأته، حتى إنها مقدمة عليه في كل مجتمع، فعادوا ينادون بوجوب الاحترام، ولكن لا يلبث كلامهم أن يذهب مع الهواء. إلا انهم إذا اجتمعوا بسائحة افرنكية أو امرأة غربية تلطفوا لها كثيراً ، فساعدوها في النزول من عربتها، وأمسكوا لها حقيبتها، ورفعوا الطرابيش إجلالاً لها، في حين أن أحدهم يستنكف أن يركب مع امرأته في عربة واحدة ، وإذا سافرت أو انتقلت إلى محل آخر تركها ونفسها، كأنه لم يكن هو صاحب الأفكار الحديثة القائل بمساعدة المرأة."[٥٦]

النقد نفسه توجهه للمتعلمين والمتدينين الذين تبقى نساؤهم في حال من الجهل وسوء الخلق، دون أن يهتموا بتغيير هذا الحال الفاسد داخل بيوتهم، وهم يدّعون الإصلاح خارجه. "يأخذ مني العجب مأخذه كلما دخلت بيت أحد العلماء ورأيت نساءه على جهل مطبق، وتنال مني الدهشة كلما سمعت ان ابنة فلان الغيور غاية في الخلاعة، وأن أخت ذلك المستنير تدعو أترابها لحفلة زار، وأن أطفال ذلك الأستاذ مثقلون بالتمائم. وأكاد أحزن إذا سألت امرأة الصحافي المشهور وهي تعرف القراءة وتدعي العلم عن مبدأ زوجها السياسي، فتخبرني ببرود إنها لا تقرأ الجرائد ولا تشتغل بمعرفة المبادئ!! يحزنني جهل هؤلاء أكثر مما آسف لجهل عامة النساء."[٥٧]

وهي تستنكر موقف الرجل الأناني الذي لم يدع للمرأة فرصة للتعلم ولتطوير مواهبها ثم يرميها بالعجز "فهل بعد أن استعبدنا الرجال قرونا طوالا، حتى خيم على عقولنا الصدأ وعلى أجسامنا الضعف، يصح أن يتهمونا بأنا خلقنا أضعف منهم أجسامًا وعقولاً؟" [٥٨]

بل وترى ملك أن الرجل هو السبب المباشر في شقاء العائلة، بل والأمة، من خلال المعاملة السيئة التي يعامل بها زوجته باعتبارها مخلوقة أدنى "وفي اعتقادي أن الرجل لو خفف قليلاً من كبريائه وعلم أن امرأته مساوية له في جميع الحقوق المشتركة، وعاملها معاملة الند بالند أو على الأقل معاملة الوصي لليتيم ، لا معاملة السيد للعبد، لما رأى منها هذا العناد الذي يشكوه ، ولا طاعته حباً فيه لا خوفاً منه، **ولا يجهل أن الاستبداد يأتي بعكس المراد. ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فكيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور!** أما والله لو أرانا رجالنا عناية

[٥٥] النسائيات ، ص٢٥
[٥٦] المرجع السابق، ص٧٤
[٥٧] المرجع السابق، ص٧٩
[٥٨] المرجع السابق، ص١٠٩

واحتراماً لكنا لهم كما يحبون فما نحن إلا مرآة تنعكس علينا صورهم، ولنا قلوب تشعر كما يشعرون. فإن أرادوا اصلاحنا فليصلحوا من أنفسهم وإلا فلينظروا ماذا هم فاعلون."[٥٩]

بل إن ملك تبدو على وعي بطبيعة "متوالية القهر" والعلاقة بين الظلم الذي قد يتعرض له الرجال على مستويات عليا، والظلم الذين يمارسونه على زوجاتهم في الداخل العائلي:

"..جدير بالرجال أن لا يشغلوا وقتنا وفكرنا بالشكوى من أعمالهم، وأظنهم يقع عليهم ظلم الحكومة مرة وضيق العيش أخرى، فلا يجدون من ينتقمون منه لأنفسهم سوانا، وما أخال محروباً أضعف منا سلاحًا وأقل طلبًا للثأر. فيارب ألهم رجال حكومتنا السداد، فان ظلمهم الأمة له أثر مضاعف فينا، ولعلنا لم نزد عن الرجل في شئ البتة إلا فيما يؤلم." [٦٠]

منهج الإصلاح عند باحثة البادية:

تميز منهج ملك الإصلاحي بعدة أمور:

- **عدم النزوع نحو اتجاهات صدامية مباشرة مع المجتمع** : بمعنى الاضطلاع بعملية التغيير الحثيثة عبر الانخراط الكلي في المجتمع، وعدم الانفصال عنه أو الاستعلاء عليه، يظهر هذا جليًا في خطاب ملك وحياتها، فملك صاحبة الأفكار الجريئة في تغيير وتحسين أوضاع النساء وترقية المجتمعات، خبرت العيش في بادية بالفيوم، حيث تزوجت وعاشت في منزل به زوجة أولى، وزوج أخفى عنها حقيقة زواجه، كما أخفى عنها حقيقة عجزه عن الإنجاب، ومع هذا لم تتقوقع الباحثة عازلة نفسها عن المجتمع البدائي الذي تعيش فيه ، بل عمدت من خلال كسب ود هذا المجتمع واحترامه على إقناع أفراده بالتغيير.

- **مراعاة التدرج في إحداث الإصلاح** : باعتبار أن "الطفرة محال وأنها مجلبة للفساد"، وأن التغيير عملية تحتاج إلى أجيال لأنها تتعلق بتغيير اتجاهات وقيم لا يمكن إحلالها وتبديلها آليا، فحين تناقش قضية الحجاب مثلاً، ترفض الرفع الفوري له قائلة:

"إن الطفرة محال.. فنساء مصر متعودات الحجاب، فلو أمرتهن مرة واحدة بخلعه وترك البرقع لرأيت ما يجلبنه على أنفسهن من الخزى وما يقعن فيه لحكم الطبيعة والتغير الفجائي من أسباب البلاء، وتكون النتيجة شراً على الوطن والدين. واذا أردت هدم بناء أفلا تهدمه قليلاً قليلاً إلى أن يتم الهدم فتبني على أنقاضه أحسن منه".[٦١]

وملك إذ ترفض التغيير الفوري، فهي تفتح الباب أمام التغيير الشامل في المستقبل، حينما تتوفر شروطه وقابلياته، نلمس هذا حين نتابع رأيها في قضية الحجاب نفسها "على أن المسألة واختلاف الآراء فيها قاضيها العادل الزمن والمستقبل، فكم من مسألة أبى قوم الا اتباعها، وآخرون نبذوها نبذ النواة فاختلفوا، وجاء الزمن مؤيداً فيها لفريق على فريق، فصارت له القوة ورجع له الحول فاتحدوا فيها، ورأيي أن الوقت لم يأن لرفع الحجاب، فعلموا المرأة تعليماً حقاً وربوها تربية صحيحة، وهذبوا النشء واصلحوا أخلاقكم بحيث يصير مجموع الأمة مهذباً ثم اتركوها لها شأنها تختار ما يوافق مصلحتها ومصلحة الأمة"

- **مراعاة الأبعاد النفسية** : بل والاهتمام بـ"نفسية التغيير" إن صح التعبير ، بمعنى التركيز على إبراز البعد النفسي لدى أفراد المجتمع في ظل علاقات القوة القائمة، وفي ظل دينامية عملية التغيير في

[٥٩] المرجع السابق، ص٧٥
[٦٠] المرجع السابق، ص٧١
[٦١] المرجع السابق، ص٢٧

ذاتها، ثم في ظل الوضع الجديد الذي سيسفر عنه التغيير . وارتباط هذه العوامل النفسية بنتائج فعلية على أرض الواقع.

فهي تقوم بإعادة تعريف وضع المرأة الابنة/الزوجة/الأم ومن ثم تغيير بنى علاقات القوة داخل العائلات ومن ثم داخل المجتمع ككل ، وتقوم في سبيل هذا باستعراض كم من الصور الحية لأوضاع ما قبل التغيير وخلاله وبعده.

وغني عن الذكر أن الهوية الأنثوية للباحثة كان لها حضور قوي بصدد الوصف الدقيق لمشاعر المرأة، وهو أمر ميزها بجلاء عن الداعين لتغيير وضع المرأة من الرجال. ولنتأمل هذه الفقرة الطويلة التي صدرت بها مقالاً لها في نقد تعدد الزوجات:

"انه لاسم فظيع تكاد أناملي تقف بالقلم عند كتابته. فهو عدو النساء الألد. وشيطانهن الفرد. كم قد كسر قلباً وشوش وهدم أسراً. وجلب شرًا. وكم من برئ ذهب ضحيته وسجين كان أصل بليته. واخوة لولاه لما تنافروا ولا تناثروا ففرقهم .. وأصبحوا تأكل الحزازات صدورهم ويضمرون السوء بعضهم لبعض يثأرون ولا ثأر بني وائل ، وكانوا لولاه متفقين. انه لاسم فظيع ممتلئ وحشية وأنانية. كم أحرج رجلاً وعلمه الكذب فأفسد عليه خلقه. وكم علم الوشاية والحسد، فإذا ما لهوت أيها الرجل بعرسك الجديد فتذكر وراءك بائسة تصعد الزفرات يتساقط من مآقيها أمثال لؤلؤ عروسك، ولكنه صهرته نار الحزن فظهر سائلا. واخش الله في صغار يبكون لبكائها علمتهم الحزن فاستعاروا يواقيت عرسك أعيناً. انت تقرع سمعك الطبول والمزامير، وهم لا يسمعون إلا دق الحزن في طبول آذانهم وكانوا من قبل ذلك جذلين".[٦٢]

- **الانطلاق من القاعدة المجتمعية** : انخرطت دعوة ملك للإصلاح في التطبيقات الجزئية وابتعدت عن التجريدات والتعميمات والمناقشات الفوقية التي ميزت جدل المفكرين الرجال.

تقول "والتجارب يجب أن تُقَدَّم أوامرها على أوامر البحث والتخيل، إذ هى تعلم بعد أن تترك أثراً في النفس لا يزول، أما التخيل فقد لا يطابق الحقيقة، وإن طابقها فقد لا يعلق كثيراً بالذهن لانه لا أثر له إلا في المخيلة بعكس التجارب فأثرها يبقى في الحواس والذاكرة، فاذا نصحت طفلاً أن لا يلمس النار لئلا تحرقه، فإن ولعه بالحركة والاستكشاف لايزال يغريه بلمسها حتى يفعل ، ولا تنفع نصيحتك له أما إذا لمسها مرة وأحرقت أصابعه فانه يبتعد عنها كلما رآها ولو أمر بلمسها".[٦٣]

إن الإصلاح لدى ملك **ليس أفكاراً علوية فحسب بل هو حياة معاشة** من لحم ودم تنعكس فى صميم دقائق حياة النساء والرجال والأسر، فالإصلاح هو إصلاح لنظام الزواج، وطرق التربية، وعلاقة الزوجين، ومنهج التعليم، وقواعد التنشئة، وأسس الاختلاط، ونظرة المجتمع لعمل المرأة، وفى تغيير معاني العلاقة بين الجنسين بتأكيد حقوق المرأة وإنسانيتها وحقها في التعبير عن مشاعرها وطلب سعادتها..الخ. إن ملك لم تطرح قضية التجديد والاجتهاد الفكري كدعوة ومطلب، كما نزع الآخرون بل طبقتها مباشرة في النظر وإعادة النظر إلى المشكلات.

- **الموازاة بين الكلمة والحركة والنموذج الشخصي في خطاب الإصلاح** : وهو أمر تكشفه حياة باحثة البادية بوضوح، بدءا من بساطتها ونزوعها نحو الهدوء والعمل غير الصاخب، ومرورًا ببذلها الوقت والمال في خدمة القضايا المجتمعية على صعيد التربية ، وتعليم المرأة ، وخدمة الفقراء وإعالة وتشغيل

[٦٢] المرجع السابق، ص٤١
[٦٣] المرجع السابق ، ص٢٥

الفتيات الفقيرات ، وخدمة المحاربين على جبهات خارجية (المقاتلين الليبيين ضد الغزو الايطالي)..إلخ، وانتهاءًا بالبساطة التي تميز كتابتها نفسها وطريقة صوغها لأفكارها وحججها، بما يجعلها يسيرة الفهم لسائر المخَاطَبين من الدرجات الثقافية والاجتماعية كافة. وفي ترجمته عنها، يقول مجد الدين ناصف "وكانت ملك فوق ما ذكرناه كريمة الاخلاق لم نعرف عن غيرها ما عرفناه عنها فكان لها إيراد صغير تنفقه كله في عمل الخير، فكم رتبت لفقيرات معاشاً شهرياً، وكم علمت فتيات على حسابها ، وكم تبرعت دون ذكر اسمها في أمور خيرية لنساء وأطفال. حتى أن صاحباتها غير الغنيات كان لهن عندها جعل سنوي من السمن والأرز والدقيق بصفته هدية حتى لا تجرح لهن إحساساً. وكان لديها من الملابس المطرزة الشيء الكثير، ولكننا قلما رأيناها تلبسها بل كانت تكتفي بجلاليب الشيت والباتيسته حباً في البساطة وقلة في الاهتمام بالمظاهر الخارجية.[٦٤]

- **التحرر من تأثيرات الاستقطاب بين الإسلام والغرب:** كان لباحثة البادية علاقاتها القوية فكريًا وإنسانيا بالغرب عبر ثقافتها الواسعة من ناحية وعبر صداقاتها بنساء غربيات من جهة أخرى، ومع ذلك لم يبد أن خطاب ملك قد سقط في "قلق" الاستقطاب بين الإسلام والغرب. لقد طرحت ملك مشكلة التنازع بين الثقافة الأصيلة والوافدة بشكل مباشر يتعلق بالمجريات الواقعية، رأت باحثة البادية في الدين مرجعاً لا نكوص عنه لإنشاء مجتمع "النهضة" وتطوره وأن الإسلام يشكل أحد المرتكزات الأساسية لنهضة المرأة. أما الغرب فقد رأته خبرة أو تجربة للآخر يتعين الرجوع إليها نظراً واستدلالا واستفادة وتحليلا لشروط النجاح والفشل باعتبارها تعبيرا عن القوة والفاعلية في ذلك العصر، ولكنها لا تنطوي إطلاقا على الاستلاب والتقليد والذوبان والقبول المستسلم لهذا النمط في أفكاره وسلوكياته. وقد انتقدت ملك منهج التحديث القائم على التغريب والمحاكاة وما يؤدى إليه من تشويه في بنية الأجيال الجديدة، بما يجعلها غير قادرة على الفعل الحضاري الأصيل أو القيام بأعباء نهضة المجتمع. وميزت في هذا السياق بين قبول المنتج الثقافي والمنتج المادي للغرب مؤكدة أن الحفاظ على الهوية هو الحد لما يمكن اقتباسه من الغرب لأنها قضية وجود أو فناء. وفى ذات الوقت فإن النهضة رهينة ببناء حضارة تجمع بين الذاتية والعصرنة.[٦٥]

ورغم أن ملك عاشت وعايشت فترة المد الوطني في بداية القرن العشرين، وعاصرت مصطفى كامل مثل هدى شعراوي، إلا أننا نلحظ في كتاباتها عزوفًا عن الخوض في تفاصيل الحالة السياسية بمفرداتها التقليدية (الأحزاب، الانتخابات..)، فقط كانت دعوتها العامة نحو "المحافظة على مصلحة الوطن والاستغناء عن الغرب بقدر الإمكان" (مضمون المادة التاسعة من برنامجها المذكور للإصلاح)، وقد علّق شقيقها مجد الدين حفني ناصف على ذلك بقوله "وهي أصلاً لا تكتب في السياسة ولا في الحماسة، ولكن قلمها –كلما دُعي إليهما يلبي في قوة وإقدام "[٦٦]

وليس هناك تفسير دقيق لهذا الموقف الذي انتهجته ملك في العزوف عن الخوض في قضايا من قبيل حقوق المرأة السياسية بشكل مفصل. وربما تجدر الإشارة هنا إلى ما أورده مجد الدين حفني ناصف في طبعة عام ١٩٦٢ من كتاب "آثار باحثة البادية" من أن الشيخ "أحمد السكندري" في كتابه (الوسيط في الأدب العربي) قال : إنها "بدأت تضع كتابًا في حقوق النساء أنجزت معه ثلاث مقالات: الأولى في الموازنة

---

٦٤ المرجع السابق، ص١٥

٦٥ أماني صالح (محرر)، بيلوجرافيا المرأة العربية في قرن (دمشق:دار الفكر، ٢٠٠٢)، ص٧٥

٦٦ آثار باحثة البادية ، ص٥٩

بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتمدينة الغربية في الحقوق المالية، والثانية في حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الأعمال العامة، والثالثة في حقوق المرأة المسلمة من جهة الإنتخاب"[٦٧]، والحق أن مجد الدين لم يذكر أنه عثر على مخطوطة هذا الكتاب ولم يعلق على ما نقله عن الشيخ أحمد السكندري ذاك ، لكن إذا صحت هذه العبارة ، فإن ملك كانت على وشك الخوض في قضايا أكثر تفصيلاً فيما يتعلق بحقوق المرأة الاقتصادية والسياسية مثل حق الإنتخاب، ولكن القدر لم يمهلها فقد توفت وهي بعد في الثانية والثلاثين من عمرها.

الخاتمة

في حين يجنح البحث النسوي عادة نحو عزل الإنتاج المعرفي للنساء باعتباره فئويًا يخص النساء فحسب وينطلق من موقف فردي/صراعي، حاولت هذه الورقة أن توضح أن الخطاب الذي قدمته السيدة ملك حفني ناصف تميز بكونه خطابا جمع بانسجام شديد بين الانشغالات النسوية المألوفة بشأن حقوق المرأة وكشف مصادر القهر وإعادة تعريف دور المرأة ومكانتها المجتمعية، وبين الانشغال بقضايا الاصلاح العام اجتماعياً وسياسيًا. وأن هذا الجمع تم نتيجة للالتحام بالواقع مقابل النأي عن المعارك الأيديولوجية، وتم بدوافع إصلاحية ووطنية، وأنه حقق لهذا الخطاب قبولا ونفوذا مجتمعيا واسعًا مكنه من تحقيق أهداف نظرية وواقعية. وأن هذه السمات كلها يمكن أن ندعي أنها سمات مميزة للمعرفة النسوية المصرية.

لقد تعرضت باحثة البادية لتحيزات مختلفة، فمن ناحية تم تجاهل خطابها (هي وغيرها من النساء) من قبل المؤرخين (الرجال) الذين رصدوا وأصّلوا لخطاب الإصلاح النهضوي ، ولم يتم النظر لها على أنها قدمت خطابا اصلاحيا لأنها اهتمت بقضايا المرأة، وكأن الاهتمام بقضايا المرأة يخرج الخطاب عن موضوع الإصلاح العام إلى موضوع "خاص".

من ناحية ثانية، ترفض كتابات نسائية معاصرة النظر لإسهامات ملك كإسهامات (نسوية) لأن خطابها اتخذ موقف اصلاحي يجمع بين إصلاح وضع المرأة والإصلاح الاجتماعي العام، أو لأنها لم تطرح قضايا المساواة وفق الطرح الراهن لها[٦٨]، أو لأنها قدمت خطابا لا ينسلخ عن المرجعية الدينية (على الرغم من الموقف المستنير لملك تجاه المرجعيات الدينية وموقفها المنفتح في الوقت نفسه على الثقافات الأخرى وقد كانت كما رأينا تتقن الإنجليزية والفرنسية وتجمعها صلات فكرية وثيقة مع كاتبات ومثقفات أجنبيات سجلن إعجابهن بها في مؤلفاتهن).

والحالتين فيهما تحيز واضح وتنميط وتسطيح. فكما نقبل بتعدد التيارات والإسهامات النسوية، والتي تتنوع بين دعاة وجود "جوهر أنثوي"، و"طبيعة خاصة" للمرأة لم تلق حظها من التقدير، إلى التيار الذي يتخذ من خبرات المرأة نقطة انطلاق standpoint feminism ويعتبر أن للمرأة نسق معارف مختلف يجعلها ترى العالم بطرق مختلفة عن رؤية الذكور، وبين تيارات النسوية البيئية eco feminism التي تناظر بين المرأة والطبيعة في القهر الممارس على كل منهما من قبل الرجل، والنسوية السلامية التي تُبرز ميل المرأة الطبيعي إلى اللاحرب واللاعنف، والرعاية... وبين الرافضين لفكرة (الاعتراف بالأنوثة كأمر طبيعي) و"الحتمية البيولوجية"، وصولا إلى المنظرات المنتميات لما بعد الحداثة وما بعد البنيوية

[٦٧] المرجع السابق، ص٣٨

[٦٨] في أحد المؤتمرات العلمية ذكرت أحد التعليقات أنه لا يمكن القول أن باحثة البادية قدمت خطابا نسويا مهتم بالمساواة، لانها لم تتحدث عن المساواة في الميراث ولم تشر إلى قضايا الصحة الإنجابية.

اللائي ينكرن فكرة (الجوهر) ويعتبرن أن النوع الاجتماعي، كأي هوية أخرى، يتخلق عبر الممارسات الخطابية، وطالما أن الجندر (بناء/نسق) تم تشكيله فبالإمكان تفكيكه، وليس له أي علاقة بجنس المرء. ناهيك عن إنكار أن هناك خبرة متمايزة متجانسة للنساء يمكن بناء معرفة عليها نظراً للاختلافات الكبيرة فيما بين النساء عبر خطوط الانتماءات القومية والعرقية والطبقية.

فكما نقبل كل هذه التنويعات النسوية، لماذا يكون عصيًا أن نقبل إسهام باحثة البادية كإسهام نسوي؟

ليس فهذا فحسب، بل إن الشاهد أن الدراسات النسوية ورغم منحاها التغييري/التمردي، قد ارتبطت بشكل وثيق بسياقاتها الفكرية، من حيث النظم المعرفية السائدة (الحداثة وما بعد الحداثة) ومن حيث الانتماءات الأيديولوجية (الليبرالية، الاشتراكية، الماركسية... إلخ) ومن حيث الاقترابات والمنهجيات الأساسية (البنيوية وما بعد البنيوية والتفكيك)، ومن حيث توجهات تتعلق بالهوية (ما بعد الكولونيالية أو النسوية الأفريقية أو النسوية السوداء) ناهيك عن ارتباط الإسهام النسوي في كل حقل علمي متمايز مثل حقل العلوم السياسية أو حقل الاجتماع وغيرهما بمضمون هذا الحقل من حيث نطاق اهتمامه وانشغالاته ومقولاته وتطوره الداخلي.

ونحن نقبل هذا لكن البعض لا يقبل أن يكون لإسهام باحثة البادية أو لعدة اسهامات نسائية خصوصية ثقافية معينة وأن هذه الخصوصية تحول بينه وبين وصف نسوي.

لقد نهجت باحثة البادية نهجًا إصلاحيا ذا صبغة اجتماعية، ولمست قضايا تتعلق بمسائل **الهوية** (فيما يتعلق بالتفاعل بين المجتمع والثقافة الوطنية والوافدة) و**المواطنة** (فيما يتعلق بحقوق المرأة في التعليم والعمل) فضلاً عما قد يسمى باستخدام مفردات الأدبيات النسوية المعاصرة **بإعادة ترتيب علاقات السلطة داخل العائلات** ، وقد بدا ذلك واضحًا في مقالاتها التي نشرت في الجريدة تحت اسم "النسائيات" أو في البرنامج الذي وضعته لإصلاح حال المرأة وأعلنته أمام مؤتمر عام متضمنًا فيما تضمن: تعليم البنات التعليم الابتدائي والثانوي وجعل التعليم الابتدائي إجبارياً في كل الطبقات، وتخصيص عدد من البنات لتعلم الطب، والحض على أن تذهب النساء سواء في المدن والقرى لحضور الصلاة وسماع الوعظ في المعابد، وأن يضمن لها حرية التصرف بالمال، وحرية الامساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان وحرية الرأي. كذلك كانت ملك على وعي بمتوالية علاقة السلطة داخل المنزل وخارجه فدعت الآباء والأزواج لنبذ الاستبداد حتى تنشأ الأجيال الجديدة محبة للاستقلال والدستور على حد تعبيرها، بل إنها في دعوتها لقضايا اجتماعية صرف، مثل العزوف عن التقاليد الغربية في البيوت، وتوجيه المصريين إلى الاقتران بالمصريات لا بالأجنبيات، أشارت إلى أن هذا في ذاته نوع من كبح طغيان المد الاستعماري من أن ينتشر داخل البيوت ومن ثم داخل الأمة ككل.

وارتبط إسهام باحثة البادية الفكري برؤية كلية/تفصيلية للواقع حولها بما تضمنه من قضايا تتعلق بالنساء وتتعلق بالوطن، رؤية كلية، حساسة وايجابية وشديدة التفاعل.

وتميز هذا الإسهام بوضوح بالتحرر من الحدية والاستقطاب الذي يميز الخطابات المؤدلجة التي كان الرجال يطرحونها والتي تجسدت في جدل مطلع القرن حول قضية (الحجاب) الذي وضعت فيه مؤلفات كثيرة غرقت في جدل الاستقطاب بين اتجاهات التغريب والأسلمة، كتابات انعزلت – من ثمّ- في معارك ثقافية ضيقة الحدود وعالية الحدة.

حسب مذكرات السيدة هدى شعراوي (١٨٧٩-١٩٤٧) رائدة الحركة النسائية المصرية والعربية الحديثة، فقد شكلت أفكار وأطروحات ملك حفني ناصف تامة التبلور والتكوين، برنامج الإصلاح الذي تبنته هدى شعراوي وزميلاتها في الاتحاد النسائي في مرحلة لاحقة.

وقد كانت السيدة هدى شعراوي بدورها رمزاً نسائيا اصلاحيا ارتبط به نمط متصل من الحركة الفاعلة ومجموعة كبيرة من النساء الناشطات سواء ممن رافقنها في العمل الاجتماعي والخدمي، أو في النضال ضد المستعمر عبر الجمعيات التي شكلتها أو من خلال لجنة الوفد المركزية للسيدات ومن بعده الاتحاد النسائي الذي تأسس عام ١٩٢٣ ، فضلا عن السيدات العربيات اللائي شاركن معها في نضالها من أجل فلسطين[٦٩]، أو من تلامذتها ممن نلن تشجيعها في حياتهن العملية أو مثلت لهن "أما" كما تصفها درية شفيق أو "مصدرا للإلهام" بتعبير أمينة السعيد، أو من خريجات المدارس الثانوية للبنات التي افتتحتها او من الكاتبات اللائي كتبن في مجلة المصرية التي أسسها الاتحاد النسائي ورأست هدي تحريرها. وقد قدمت هدى شعراوي بالمثل خطابا بالغ الثراء ضمنته خطبها في المؤتمرات المحلية والدولية ومقالاتها في مجلة المصرية وحركتها الدائبة. واتسعت دائرة القضايا التي طرحتها فشملت مسائل التحرر من الاحتلال وتدعيم الجبهة الوطنية ووحدتها، وتدعيم الجبهة الاجتماعية الأخلاقية عبر دعم الأخلاقيات العامة ومحاربة المسكرات والمخدرات والبغاء، وتضمن اهتمامها بشئون المرأة تأكيد حقوقها في المساواة والعمل والتعليم والمشاركة السياسية، كما تناولت مسائل تنظيم العائلة وإعادة هيكلة بنية العلاقات فيها عبر إعادة تعريف الزواج نفسه، وعبر الاقتراحات بتعديل قوانين الأحوال الشخصية فيما يخص مسائل الحد الأدنى لعمر الفتاة عند الزواج وتقييد تعدد الزوجات وتنظيم الطلاق وتمديد سن حضانة الأطفال. وقد أكدت في خطابها على أفكار كلية منها أنه لا سبيل لتقدم الأمة إلا بعد التخلص من الاحتلال، وأن الإصلاح عملية كلية وأن ترقية المرأة سبيل لترقية المجتمع وأن الإسلام بريء من أي إساءة للمرأة فيما يكمن الخطأ في التطبيق الاجتماعي.

ومرة أخرى، نلمس هذا الملمح المهم وهو الانخراط في فعل الإصلاح على أرض الواقع بشكل تتوازى فيه الكلمة المسطورة مع الحركة الفعلية والتحرر **من** الصراعات الأيديولوجية التي تخلق حوارات مغلقة ومنفصلة عن الواقع واحتياجاته.

لقد قدمت المرأة المصرية في وقت مبكر خطابا أكثر مرونة وأكثر اقترابا من الواقع وإحساسا بالمتطلبات الفعلية لمجتمع في مرحلة تحول. ونجح هذا الخطاب في تكوين مدرسة انتقلت شعلتها من جيل لجيل، كما نجح في تحقيق مكاسب فعلية للمرأة على أرض الواقع، من ذلك نشر الوعي حول أوضاع ومشكلات النساء، وخلق رأي عام مؤيد، والضغط في سبيل تغييرات قانونية وسياسية داعمة للمرأة.

[٦٩] في عام ١٩٤٤ زارت هدى شعراوي مع حواء إدريس وأمينة السعيد جمعيات النساء في الدول العربية كما التقت بعدد من القادة الحكوميين لبحث هذا الأمر ، وعند عودتها دعت إلى عقد "المؤتمر النسائي العربي" في القاهرة. وقد انعقد هذا المؤتمر بالفعل في ديسمبر ١٩٤٤ بدعم من الحكومة المصرية، وكان موضوعه "الوحدة العربية : بين الأمم العربية وبين النساء العربيات وبين النساء والرجال العرب" وجدد المؤتمر اهتمامه بالقضية الفلسطينية وبالدعاية لها عالميًا، وأكد على قضايا المرأة وحقوق المواطنة لها وعلى رأسها حق التصويت والانتخاب والحق في التعليم والعمل، فضلاً عن إصلاح قوانين الأحوال الشخصية "من خلال تفسير مستنير للشريعة الإسلامية"، وبشكل عام كان برنامج المؤتمر في هذه القضايا يشبه برنامج الاتحاد النسائي المصري نفسه الذي ظل يدعو إليه منذ إنشائه عام ١٩٢٣. انظر: مارجو بدران، رائدات الحركة النسوية المصرية والإسلام والوطن، ترجمة علي بدران (القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠) ، ص ٣٦٥-٣٧٧

لم تكن ملك حفني ناصـــف (باحثة البادية) (١٨٨٦-١٩١٨) ســـيدة أدت دورًا في التاريخ الاجتماعي والثقافي المصـري فحسـب، إنما كانت، ورغم عمرها القصـير، رمزًا امتلك ما قد نسـميه "سـلطة معرفية" حرّكت الفكر وقدمت القدوة في مرحلة مهمة من تحولات الوعي والفكر في التاريخ المصري الحديث.